محمد رسول الله

الفصل الثالث: السياسة

"بين الرسول ويهود الحجاز"

بقلم

الأستاذ الدكتور

عبد الله حسين على سليمان

أستاذ الأدب والنقد

جامعة الأزهر

مقدمة:

هذه الأحداث تمضى سراعاً متتابعة على عالمنا العربى فتوقظه من سُباته، وتُنهضه من كَبْوتِه، وتُقِيله من عَثْرته، وتزيده إيمانا بعدالة قضيته، وتُشعله حماسا للانتصار لها والزود عنها وإعداد العدة للكفاح فى سبيلها. وليس هناك ما يقلق بال أمة العرب، ويعبث بأمنها، ويثير مخاوفها، ويؤجج نيران الغضب فى جوانحها سوى ذلك السرطان اليهودى الإسرائيلى الصهيونى الذى استشرى فى قلب الأمة العربية فى فلسطين وهو يحاول اليوم أن يتفشى وينتشر فى كل اتجاه.

إن مأساة فلسطين هى قضية الأمس، ومشكلة اليوم، وعبرة المستقبل .. ومما لا شك فيه أن بين اليهود والعرب ماض بعيد وبعيد جدًا، وفى هذا الماضى عبرة وفيه عظة وفيه كشف وإرشاد عن أعظم خطة سياسية يمكن أن ينتهجها العرب إزاء اليهود لتخليص وطنهم العربى من أخطر آفة حلت به وأعظم مصيبة وقعت فى أراضيه.

ولقد اخترت حقبة معينة من هذا التاريخ الطويل تتسم بطابعها الخاص وتمتاز بروائعها الخالدة التى لا تنسى ولا يمكن أن تغيب عن خاطر أو تعزب عن بال .. تلك الحقبة التى تصور موقف الرسول ﷺ وسياساته الحازمة إزاء يهود الحجاز هؤلاء الذين أرادوا القضاء على الأمة الإسلامية وهى لما تزل بعد فى طور نشوئها وارتقائها، وحاولوا جاهدين زلزلة كيانها، وتحطيم معنوياتها والعبث بمصائرها مستعينين بشتى الحيل وضروب الألاعيب ومتسترين بستار مظلم من الغش الخسيس والخداع الكاذب والدهاء البالغ والنفاق البغيض .. ولكن كل ذلك يتحطم أمام

سياسة الرسول الرشيدة وموقفه الحازم وعزيمته الجبارة التى لا تقهر حتى فى أحلك الظروف وأعصب الأوقات.

إننا فى حاجة إلى أن نفقه جوهر هذه السياسة الحازمة وننهج نهجها ونسلك سبيلها لأنها سبيل النصر وطريق الخلاص ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أنحنى إجلالاً أمام عظمة الرسول الخالدة، وحكمته البالغة، وسياسته الرشيدة، وعبقريته الفذة الفريدة ...

"**عبد الله حسين**"

تمهيد:

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ﴿تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول: يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله﴾

صدق رسول الله وحقت عليهم كلمة الله: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الأعراف: ١٦٧].

إن اليهود أهل عداوة وفساد، وأرباب مكر ودهاء، وهم أشد عداوة للمسلمين فى كل عصر وحين وصدق الله إذ يقول: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [المائدة: ٨٢].

وقد تحقق صدق ما أخبر به الرسول صلوات الله عليه فى عصرنا هذا بمقدمات منبئة عما سيكون حيث قامت وتقوم دول كثيرة فى العالم بمطاردة اليهود وإجلائهم عن بلادهم والاستيلاء على أموالهم وإلحاق صنوف من الذل والهوان بهم.. حدث ذلك على أيدى دول مختلفة من إنجليز وروس وإيطاليين وألمان وغيرهم .. ومن العجيب أن سوط العذاب لم يرفع عن ظهورهم فى كل تاريخهم إلا فى البلاد الإسلامية أى إن أحسن معاملة نعم بها اليهودى لم تكن إلا من يد مسلم.

وفى كتاب "المسألة اليهودية" لمؤلفه لويس جولدنج اليهودى الإنجليزى نقرأ الكثير مما أصاب اليهود فى كل زمان ومكان بسبب بغيهم

وسعيهم فى الأرض بالفساد وإن كان المؤلف يحاول أن يظهر اليهود كشهداء ظلمهم الناس فى شتى العصور فمنذ ألفى سنة أى فى عهد العاهل الرومانى "تيتوس" شرِّد اليهود واصبحوا عبيدًا للرومان يسخرونهم فى أشق الأعمال وكانوا يهلكون بالآلاف جوعًا وإعياء وإمعانًا فى إظهار مشاعر المقت والازدراء كان يُزَجّ بهم فى حظائر السباع المفترسة لمنازلتها فى الملاعب الرومانية لتسليتهم.

وفى العصر الأول للمسيحية كان المسيحيون يعاملون اليهود دينيًا ومدنياً معاملة السيد للمسود فحرموا عليهم التزاوج مع النصارى وحظروا عليهم امتلاك العبيد والخدم كما كان محرومًا عليهم امتلاك العقارات واقتناء الثروات الكبيرة وكانت عقوبة القتل أقرب جزاء لمن يفعل هذا ولم يكن مسموحًا لهم الاحتراف بمهنة الطب خوفًا أن يمس طبيب يهودى مريضًا مسيحيًا فيدنسه .. وهكذا تمت هذه الحلقات من الاضطهاد وتتابع من العصور القديمة إلى العصور المتوسطة وتستمر إلى العصر الحديث جزاء بما كانوا يفعلون .. ولقد كان دور النازية فى هذا العصر الحديث أخطر دور عرفه اليهود فى تاريخهم الطويل حيث كانت القاعدة العامة فى دستور الراين الثالث نحو اليهود إخراج كل يهودى من عمله والقضاء على كل منهم سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وهذا هو الموت المعنوى بذاته .. ولتفصيل ذلك أرى أن أبين أن الجالية اليهودية فى ألمانيا سنة ١٩٣٣م وعددها نصف مليون يهودى ذاقت العذاب والموت والهوان والتشريد بل سيموا من ألوان العنت والاضطهاد ما لا يتصوره إنسان وقد فضل الآلاف من هؤلاء اليهود الخلاص بطريق الانتحار المنظم فكانت آلاف العائلات تقدم على الانتحار جماعات جماعات كبارًا وصغارًا. وسرعان ما امتدت

موجة تلك المعاملة إلى يهود النمسا والمجر ورومانيا وتشكوسلوفاكيا وإيطاليا .. وإننا لنتساءل ويحق لنا أن نتساءل لماذا هذه النزعة العدائية العالمية ضد اليهود وما السبب فى غضب الله تعالى على هذه الفئة دون غيرها من خلق الله ؟؟؟

فى الحقيقة أن هؤلاء الناس قد اختصوا بصفات لم تكن فى غيرهم من البشر وسلكوا سبلاً ملتوية وانتهجوا طرائق معوجَّة لا يرضى عنها الله وتأباها الطبائع الإنسانية القويمة: فهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار دون سائر العالمين وبذلك امتلئوا كبرًا وعتوًا وتمادوا فى التمسك بالعصبية الجنسية والحمية القومية ومن هنا نرى انعدام عاطفة الرحمة والحنان عندهم على غيرهم من الشعوب: والله تبارك وتعالى يرد عليهم فى قرآنه حين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه بقوله: ﴿**قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ**﴾ [المائدة: من الآية ١٨]. وقوله: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّه**﴾ [آل عمران: من الآية ٣١]. إن هؤلاء الضالين المضلِّين طالما افتروا على الله الكذب ولجُّوا فى العناد واستكبروا وعتوا عُتوًا كبيرا فكذبوا أنبياء الله وقتلوهم وتآمروا عليهم وحاربوا دعوة الحق فحقت عليهم الكلمة ولحقتهم اللعنة وذلك جزاء المفسدين: ﴿**وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً**﴾ [المائدة: من الآية ٦٤].

﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ**

اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

ومرة أخرى أعود وأقول: وإن تعجب فعجب أن تعلم أن سوط العذاب لم يرفع عن ظهور اليهود فى كل تاريخهم إلا فى البلاد الإسلامية أى إن أحسن معاملة نعم بها اليهودى لم تكن إلا من يد مسلم...

وقد أوردت هذا كله مدعَّمًا بالحقائق التاريخية لأثبت فساد زعم جماعة المستشرقين ومن شايعهم فى اتهامهم المسلمين وعلى رأسهم رسولهم الأمين محمد المبعوث رحمة للعالمين بالجور والطغيان على جماعة اليهود الذين كانوا يجاورونه فى الجزيرة العربية وادعائهم أن المسلمين لم يعبئوا بما تفرضه المثل الإنسانية من رحمة وعطف وحسن تعامل فى غير ما عصبية أو بغى ...

والتاريخ يحدث بأن محمدًا وأصحابه وأتباعه لم يكونوا يوما جائرين ولا ظالمين فى معاملتهم لليهود بل على العكس من ذلك كانوا كرامًا وبررة أخيارا فى الوقت الذى كانت فيه اليهود تدبر للقضاء على الدعوة الإسلامية متعاونة فى ذلك مع الشرك والوثنية ...

وهذا ما سوف نتبينه بوضوح وجلاء مما سأورده من وقائع مثيرة وأحداث دقيقة وخطيرة وسنرى من تحليلنا لهذه الوقائع والأحداث أنهم كانوا الخونة الغادرين وكان الرسول محمد من الأوفياء العادلين ... بل كان على القمة فى الوفاء والعدل.

نشأة اليهود وعلاقتهم بالعرب:

يؤخذ من مؤلفات المستشرقين أمثال "مَرْجُليوث"" فى كتابه "العلاقة بين العرب والإسرائيليين قبل ظهور الإسلام" و"دوزى" فى كتابه "الإسرائيليون فى مكة" و"بيرفى" فى كتابه "إقامة إسرائيل فى كنعان" و"جلازر" فى كتابه "بلدان شبه جزيرة العرب" وبعض أسفار التوراة:

أن اليهود سكنوا منذ التاريخ البعيد أطرافًا فى بلاد العرب ...

قال صاحب الأغانى أبو الفرج الأصفهانى[1]: "كان ساكنو المدينة فى أول الدهر قبل بنى إسرائيل قومًا من الأمم الماضية يقال لهم العماليق وكانوا قد تفرقوا فى البلاد وكانوا أهل غزو وبغى شديد وكان ملك الحجاز منهم يقال له "الأرقم" ينزل ما بين تيماء إلى "فَدَك" وكانوا قد ملأوا المدينة ولهم بها نخل كثير وزرع وكان موسى بن عمران قد بعث الجنود إلى الجبابرة من أهل القرى يغزونهم فبعث موسى إلى العماليق جيشًا من بنى إسرائيل وأمرهم أن يقتلوهم جميعًا إذا ظهروا عليهم ولا يستبقوا منهم أحدا"، وفى التوراة ما يؤيد وجود العلاقة بين بلاد فلسطين الكنعانية وبين البلاد العربية ويقول عبد الله حسين فى كتابه "المسألة اليهودية": وقد اشتدت هجرة اليهود إلى الأرجاء العربية منذ القرنين الأول والثانى بعد الميلاد لضيق فلسطين بكثرة سكانها ومهاجمة الدولة الرومانية لها حول القرن الأول قبل الميلاد وإلغاء الدولة اليهودية وإخضاع فلسطين للحكم الرومانى وثورات اليهود عليه مما كان من أثره خراب فلسطين وتدمير هيكل بيت المقدس وتشتيت اليهود .. وفى هذا يقول صاحب الأغانى: إنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعًا بالشام فوطأوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم

(١) الأغانى، ج١١، ص ٩٤.

وخرج بنو النضير وبنو قريظ وبنو نهدل من القبائل اليهودية هاربين منهم إلى من بالحجاز من بنى إسرائيل ...".

وكان اليهود رغم كثرتهم ببلاد العرب يتكلمون اللغة العربية وكانت أسماؤهم عربية ويقول "نولدك Noeldeke": إن هؤلاء اليهود هم من أهالى ا لبلاد العربية الذين اعتنقوا دين اليهودية وأنهم لم يكونوا مزوَّدين بمعلومات كافية فى التوحيد ولو أنهم كانوا شديدى التمسك بدينهم".

ويعلل الدكتور "فيليب حتى" للمسألة فيقول فى كتابة "تاريخ العرب": وإذا اعتبرنا الأسماء العلمية التى تسمَّى بها يهود يثرب والألفاظ الآرامية التى كانوا يستعملونها فى حياتهم الزراعية فإننا نحكم أنهم كانوا بالأكثر من القبائل العربية والآرمية التى تهودت مع أنه ربما كانت نواة هذه الجماعة إسرائيلية صرفة هجرت فلسطين فى القرن الأول للميلاد على أثر الفتح الرومانى .. وقد سلك الدكتور حسن إبراهيم حسن سبيلاً قويمًا فى كتابه "تاريخ الإسلام السياسى" حينما تعرض لليهود عند تقسيمه لسكان المدينة فقال: والرابع اليهود وهم بقية بنى إسرائيل مع من تهوَّد من العرب وانتهى بهم الأمر إلى الخروج تدريجيًا من جزيرة العرب ...

وهكذا يختلف المؤرخون فى أصل اليهود فبعضهم يذهب إلى أنهم عرب اعتنقوا الديانة الموسوية والبعض الآخر يرى أنهم يهود هاجروا إلى بلاد العرب..

وعلى كل فإن العرب لم يعرفوا الديانة الموسوية وإنما انتقلت إلى بلادهم من الخارج فمن المعروف أن هذه الديانة نشأت بمصر ولما رفض اعتناقها فرعون وقومه خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر حوالى سنة ١٤٩١ قبل الميلاد ووصلوا طور سيناء وانتقلوا إلى "أورشليم" فى حوادث

يطول شرحها[١]. ومن الجائز جدًا أن تكون بطون من بنى إسرائيل قد تسربت من .. أورشليم" إلى شبه جزيرة العرب فى زمن متقدم كثيرًا على سقوط دولة بنى إسرائيل فى الشام تحت يد الإمبراطور الرومانى "تيتوس" سنة ٧٠م وقد انتشرت اليهودية ببلاد العرب قبل الإسلام بقرون وتكونت فيها مستعمرات يهودية وأشهرها "يثرب" – وهى التى سميت بعد بالمدينة – كما تكونت مستعمرات يهودية فى تيماء وفى "فَدَك" وفى خيبر وفى وادى القرى وفى يثرب وهى أهمها وكان يهود يثرب ثلاث قبائل: (بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة)[٢] وحيث تعرضنا لليهود فى يثرب فيحسن بنا أن نذكر أن اليهود قبل ظهور الإسلام كانوا قد احتلوا أخصب بقاع الحجاز واستغلوها فى الزراعة والصناعة والتجارة[٣] ويؤخذ مما ذكره ابن هشام فى سيرته والبلاذرى فى فتوح البلدان أن اليهود قد حفروا فى بلاد العرب الآبار وأخذوا الربا وربوا الماشية وعنوا بالنسيج والصياغة وصنع الأسلحة وأن العرب كانوا يرهنون عندهم الأمتعة ليستدينوا منهم ما يحتاجون إليه .. وقد كانت لغتهم هناك العربية مشوبة بالرطانة العبرية التى كانوا يستخدمونها فى صلواتهم كما كانت أسماؤهم عربية كذلك.

اليهود فى شمال الحجاز:

وكان اليهود يكونون قوة كبيرة فى شمال الحجاز تعادل تقريبًا قوة قريش فى الجنوب منه وكان نفوذ اليهود يمتد من المدينة حتى تيماء وهى واقعة فى أقصى حدود الحجاز الشمالية أى حتى حدود سورية فى مسافة

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام محاضرات محمد محمد مصطفى النجار.

(٢) فجر الإسلام، أحمد أمين، ص ٢٧.

(٣) قيام الدورة العربية الإسلامية، جمال الدين سرور.

لا تقل عن ٤٥٠ ك م تقريبًا. ونستطيع أن نقرر عن ثقة بعد دقة البحث والوقوف على أساليب اليهود وخططهم وما جُبلوا عليه أنهم كانوا يسيطرون سيطرة فعلية على اقتصاديات شمالى الحجاز فهم الأكثر ثروة وغنى والأوفر سلاحًا وعتادًا وهم القائمون بالشئون التجارية والزراعية حتى إن صاحب كتاب "نشأة الدولة الإسلامية" يقول(١):

"وما كان الأوس والخزرج فى المدينة سوى أجراء لهم يعملون على تنمية زراعتهم ويخدمونهم بالأجرة" .. ولا عجب فقد ألهوهم بالدس والوقيعة وما نجم عن ذلك من حروب طاحنة عن الاشتغال بما ينمى ثروتهم ويصلح حالهم .. وهذا هو سلاح اليهود فى كل زمان ومكان.

وفى كيفية وصول هؤلاء اليهود إلى الحجاز خلاف بين الباحثين ولكن بالرجوع إلى ما قدمنا نستطيع أن نرجح أنهم قدموا من فلسطين بطريق البلقاء أو وادى موسى هربا من ظلم الروم وبطشهم هذا الظلم والبطش الذى أوردنا طرفاً منه فيما سبق وانتهى بإجلائهم عن فلسطين فنزحت بعض قبائلهم إلى هذه الديار وعكفت على الزراعة والتجارة وتنمية ثرواتها وانضم إليهم من تهوَّد من السكان الأصليين مكونين بذلك قوى مختلفة تسكن مناطق متعددة وأشهر هذه المناطق وأهمها: منطقة المدينة ويقيم فى داخلها يهود بنى قَيْنُقَاع. وفى ضاحية المدينة من جهة الجنوب الشرقى فى مهزورا كانت تقطن بنو قُرِيْظة. أما بنو النَّضِير فكانوا ينزلون فى ضاحيتها من جهة الغرب فى بطحان. وتلى هذه المنطقة فى الأهمية منطقة خَيْبَر وقد كانت أعظم المراكز اليهودية فى الشمال وتقع فى مركز متوسط تقريبًا بين المدينة وتيماء وهى فى شمالى المدينة وتبعد عنها نحو

(١) نشأة الدولة الإسلامية لأمين سعيد، ص ٣١.

١٥٠ ك م، ويهود هذه المنطقة أشد قوة وأكثر ثراء، وفى هذه المنطقة وادى القُرَى وكان واحة كبيرة لليهود فى الشمال، وفيها أيضًا "فَدَك" وهى منتصف الطريق بين خيبر وتيماء. وأقل هذه المناطق شأنًا منطقة تيماء فى أقصى حدود الحجاز الشمالية وعلى الحدود السورية .. ولعلنا نلحظ من تتبعنا لهذه المواقع والمراكز اليهودية مدى إحاطتها بالمدينة وسيطرتها على المنطقة كلها من شتى الجهات مما يؤكد أن هذه المواقع كانت بناء عن تخطيط محكم، من أهدافه البعيدة السيطرة الكاملة على المنطقة و اتخاذها قاعدة للوثوب والانطلاق والتمادى فى التوسع.

وقد أثبت بعض الباحثين إحصاء عدديًا تقريبًا للقبائل اليهودية المختلفة حيث يرى هذا البعض أنهم كانوا يبلغون نحو عشرة آلاف نسمة موزعة كما يلى:

البطون النازلة بين الأوس والخزرج حول المدينة: ٦٠٠

بنو قينقاع	:	١٤٠٠	بنو النضير	:	١٥٠٠
بنو قريظة	:	١٥٠٠	خيبر	:	٣٠٠٠
وادى القرى	:	٥٠٠	فدك	:	٥٠٠
تيماء	:	٥٠٠[١]			

بين اليهود والأوس والخزرج:

عرف اليهود الأوس والخزرج بحكم الجوار هذا الجوار الذى كثيرًا ما كانت تشوبه البغضاء وكثيرًا ما كان يتعدى البغضاء إلى القتال.

والأوس والخزرج قبيلتان مشهورتان فى شمالى الحجاز وأصلهما من قبائل قحطان التى هاجرت على أثر حادث سيل العرم المشهور

(١) أمين سعيد: نشأة الدولة الإسلامية، ص ٣٢ وما بعدها.

وينزلون يثرب وهى على ٤٠٠ ك م من مكلة إلى الشمال و١٣٠٣ ك م من دمشق إلى الجنوب ونحو ألف ك م من بغداد شرقاً وتعد عاصمة شمالى الحجاز.

وأوس وخزرج أخوان والدهما حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس ابن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ووالدتهما قيلة بنت كاهل ابن عذرة بن سعد من قضاعة.

وكانت قبائل الأوس والخزرج تنزل فى نفس المدينة وفى ضاحيتها وتعمل فى الزراعة ولها نخيل وكروم وبيوت ومساكن أى أنها قبائل مستقرة متحضرة ويرجح بعض الباحثين(١) أن عددها يتراوح بين ألفين وخمسمائة وثلاثة آلاف.

ويحدثنا التاريخ أن المسيحيين فى الشام ممن كانوا يتبعون الدولة الرومانية الشرقية وكانوا يمقتون اليهود أشد المقت لاعتقادهم أنهم هم الذين صلبوا المسيح ونكَّلوا به .. هؤلاء المسيحيون قد أ غاروا على يثرب ليقتلوا يهودها فلما لم يتمكنوا منهم استعانوا (بالأوس والخزرج) لاستدراجهم فتمكنوا بذلك من قتل عدد منهم غير قليل وكان من نتائج ذلك أن انحطت قيمة اليهود الأدبية ونزلوا عن مكان السيادة الذى كان لهم وعلى العكس من ذلك ارتفع عرب الأوس والخزرج إلى مكانة غير مكانة الأجراء والعمال التى كانوا مقصورين من قبل عليها. ومرة أخرى حاول العرب أن يوقعوا باليهود لتعزيز سلطانهم بالمدينة فأصابوا بعض النجاح ولكن اليهود فطنوا لوقيعتهم بهم ووقفوا على حقيقة الدور الذى يقوم به العرب ضدهم

---

(١) نفسه، ص ١٤ وما بعدها.

ومن هنا تمكنت العداوة والبغضاء فى نفوس يهود يثرب لأوسها والخزرج وفى نفوس الأوس والخزرج لليهود. ورأت اليهود أن القتال لن يكون فى صالحها فلجئوا إلى السياسة التى عرفوا بها: سياسة الوقيعة والتفريق إذ دسُّوا بين الأوس والخزرج وملئوا نفوس هؤلاء وأولئك حفيظة بعضهم على بعض مما جعل كلا من الفريقين على أهبة مستمرة للقتال وجعل اليهود بمأمن منهم ومن عدوانهم يزيدون فى تجارتهم وفى ثروتهم ويستعيدون ما فقدوا من سيادة ويستردون مكانتهم التى كانت لهم من قبل فى الوقت الذى تتناحر فيه القبيلتان وتكيد كل منهما لأختها تاركين شئون المال والتجارة والزراعة تحت سيطرة اليهود ولحسابهم.

وأى باحث مدقق لا يستطيع هنا إلا أن يقرر فى ثقة واطمئنان أن هذه الناحية المادية قد لعبت أخطر دور كعامل مهم فى تكييف العلاقة فيما بعد قدوم الرسول إلى المدينة بين المسلمين واليهود ووسمها بسيمة خاصة متميزة عبَّر عنها القرآن الكريم وصوَّرها بقوله: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ**﴾.

وسنرى فى الوقائع التى سنتعرض لها أثرًا بارزًا لهذا العامل الحيوى الخطير مما يؤكد حقيقة ماثلة هى أن اليهود لا يصدرون فى عدواتهم للمسلمين عن مجرد عاطفة دينية أو عصبية جنسية بل تتعدى ذلك إلى العوامل المادية والاقتصادية البحتة.

وإذ نطرح جانبًا هذه المنازعات التى كانت تنشب بين اليثربيين من العرب واليهود حول السيادة والسلطان نرى أنه كان لتجاور العرب واليهود بيثرب أثر عميق فى نفوس الأوس والخزرج ونعنى به هذا الأثر الروحى للديانة اليهودية لأن وجود ديانة سماوية كاليهودية بالمدينة لها كتاب منزل

من عند الله وفيها ذكر للوحى والنبوة ووحدانية الإله وعظمته وقدرته الشاملة وفيها ذكر البعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك كل ذلك كان لوجوده أعظم الأثر فى إضعاف الوثنية فى نفوس العرب النازلين بالمدينة وتهيئتهم لقبول دعوة موحِّده كالدعوة الإسلامية يجدون لها صدى فى نفوسهم ومعنى ساميًا عميقاً قد خالط قلوبهم وامتزج بعواطفهم من قبل. ومما لا شك فيه أنه كانت هناك صلات وثيقة بين اليهود وجيرانهم من العرب حتى إنهم ألفوا أفكار اليهود الدينية ومرنوا على استساغة الكثير منها مما جعلهم أكثر استماعًا للحديث فى الشئون الروحية وفى سائر شئون الدين من غيرهم من العرب(١).

ومما هو جدير بالذكر أن اليهود كانوا على علم ومعرفة (بنبى عربى يبعث – رحمة للناس وقد قرب زمانه وحلَّ عهد اللقاء به ذلك النبى العربى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة ويعرفونه بسماته وصفاته كما يعرفون أبناءهم) .. وقد كانوا يهددون العرب من أهل يثرب باتباعه والانضواء تحت لوائه لكى تكون لهم الغلبة ويتحقق لهم النصر ولذا فقد رسخت أخبار النبى المنتظر فى عقول وقلوب اليثربيين من العرب وظلوا على انتظار وترقب له يحدوهم أمل فى اتباعه، وقلق من مبادرة اليهود إلى الاستجابة له والانتصار به عليهم ...

اتصال أهل يثرب بالرسول واستجابتهم له:

لا شك أن أهل يثرب حينما رأوا محمدا واستمعوا إليه عرفوا مبلغ الشبه بينه وبين من توعدهم به اليهود فبادروا إلى تصديقه حتى لا يسبقهم اليهود إلى اتباعه فيقتلوهم قتل عاد وإرم، ومما لا شك فيه أيضًا أن أهل

(١) حياة محمد لهيكل، ص ١٦٤، وتاريخ الإسلام السياسى لحسن إبراهيم حسن، ص ١١٤.

يثرب من العرب كانوا فى حاجة مُلحَّة إلى من يجمع كلمتهم ويوحدهم ضد اليهود .. ذكر ابن هشام فى سيرته(١): قال: قال ابن إسحق وحدثنى عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا إنه تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزلت الآيات "من سورة البقرة": ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]

وكان الجدير فى نظر العقل والمنطق وما بدر من اليهود أن يسارعوا هم أيضًا إلى الاستجابة لنبى الإسلام محمد ﷺ ولكنهم لم يفعلوا بغيًا وحسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فكفروا به وكانوا بذلك فى وضع شاذ غير مفهوم لدى جيرانهم العرب الذين طالما حدَّثوهم هم أنفسهم عن نبى يبعث قد تقارب زمانه وسيتبعونه حتى يكونوا به قوة على غيرهم .. قال ابن إسحاق وحدثنى صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد أخى بنى عبد الأشهل عن سلمة ابن سلامة بن وقش – وكان سلمة من أصحاب بدر – قال كان لنا جار من يهود فى بنى عبد الأشهل قال فخرج علينا يومًا من بيته حتى وقف على بنى

---

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٠٢ وما بعدها.

عبد الأشهل قال سلمة وأنا يومئذ أحدث من فيه سنا على بردة لى مضطجع فيها بفناء أهلى فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار قال: فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أ ن بعثا كائن بعد الموت .. فقالوا له: ويحك يا فلان أو ترى هذا كائن أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم قال نعم ثم سأله عن آية ذلك فقال: نبى مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده إلى مكة واليمن .. فقالوا ومتى تراه؟ قال فنظر إلىَّ وأنا من أحدثهم سنًأ فقال إن لم يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه قال سلمة فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا رسوله وهو حى بين أظهرنا فآمنا به وكفر به اليهود بغياً وحسدًا قال: فقلنا له ويحك يا فلان ألست الذى قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال: بلى .. ولكن ليس به .."

وكما قدمت لم يكن اليهود منطقيين مع كلامهم الذى أوردوه وبدوا وكأنهم بتصرفاتهم يتخبطون فى مجاهل لا قبل لهم بها أوجدها عندهم وخلقها فى نفوسهم انصرافهم عن الحق ومكابرتهم له وعدم انصياعهم لما يعرفونه حق المعرفة عن صاحب الدعوة الإسلامية ﷺ .. فقد كانوا كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿**يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: من الآية ١٦٤].

أمَّا عن الأوس والخزرج فقد أيَّدوا الرسول وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه وعقدوا معه المبايعات وتعهدوا له بأن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأن يتمسكوا بتعاليم دينهم وأن يكونوا على استعداد لنصرة المسلمين إذا آووا إليهم ... وإذ قد علمنا أثر الديانة

اليهودية فى أهل يثرب حتى أنهم انصاعوا انصياعًا تامًا للحق فما بالهم لم يتهوَّدوا ؟؟؟

يبدو أن اعتقاد اليهود أ نهم شعب الله المختار وأنه لا يصح أن تكون لغيرهم هذه المكانة جعلهم لا يدعون لدينهم ولا يُسرُّون بدخول أحد فيه فضلاً عن أنهم كانوا لا يطمعون فى أكثر من السلامة التى تهيئ لهم سعة التجارة وخاصة بعد الحرب التى نشبت بين النصرانية واليهودية فضلاً عن أن العرب أنفسهم لم يكن يرضيهم أن يفنوا شخصيتهم فناءً كليًا فيهضمهم مجتمع آخر يطمعون فى منافسته والظهور عليه بل والقضاء عليه حتى يكون لهم كيان مستقل ووحدة قائمة بذاتها(١).. وتأتى بعد ذلك كله تلك المبادئ الإسلامية الرشيدة التى تُقنع كلَّ من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد هذه المبادئ والتعاليم التى هى أقرب إلى الفطرة العربية النقية الصافية فلا عجب أن تهتز قلوب فى يثرب بروعة اليقين وتختلج نفوس هناك بومضات الإيمان وإشراقة التوحيد ذلك تقدير العزيز العليم والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ..

هجرة الرسول إلى المدينة:

راع قريشًا نبأ تحالف الرسول مع أهل يثرب وبدت لهم خطورة الموقف فى هذه الخطة الجديدة التى انتهجها محمد من مبايعات ومحالفات فأجمعوا أمرهم على اغتياله والخلاص منه .. وما لبث الوحى أن هبط على رسول الله ﷺ ليفضح أكبر مؤامرة دُبِّرت للقضاء عليه وسحق دعوته: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وأذن الله لرسوله

(١) حياة محمد لهيكل، تاريخ العرب وعصر الرسول لعبد الفتاح شحاته.

فى الهجرة .. ولسنا الآن فى صدد الكلام بتفصيل فى هذا الموضوع وكل ما يعنينا أن نذكره هنا هو أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه وصل إلى يثرب بمصاحبة أبى بكر بعد ظهر يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول الموافق "٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م".

وقد استقبله سائر أهلها من المسلمين والمشركين واليهود استقبالاً حارًا لا عهد له به ولا عهد ليثرب بمثله وكلٌّ تهتز مشاعره ويخفق فؤاده بما يعلق عليه من آمال سياسية واجتماعية تختلف بالنسبة لكل منهم وهم ينظرون إلى هذه الحياة الجديدة التى دبَّت إلى مدينتهم وإلى هذا القادم العظيم الذى اجتمعت عليه كلمتهم وما كان يدور بخلد واحد منهم فى هذه البرهة التى اعتدل فيها ميزان التاريخ إلى وجهته الجديدة ما أعدَّ القدر لمدينتهم من جلال وعظمة يبقيان على الزمن ما بقى الزمن ...

لقد استقبله المسلمون من أهل يثرب وقلوبهم مفعمة بحبه ونفوسهم ملؤها اليقين والإخلاص للدين الجديد الذى ينتظرون العزة والغلبة بقدومه ويعلقون عليه آمالاً كبارًا ... واستقبله اليهود وأحسنوا استقباله أملاً فى استدراجه إلى دينهم وطمعًا فى انضوائه تحت لوائهم وبذلك تتأكد لهم الغلبة وتتحقق لهم السيطرة الكاملة...

أما المشركون من أهل يثرب فقد استقبلوا محمدا واحتفوا به احتفاء من يصطنع الود ويستبق الأحداث بالجميل اتقاء قلق مرير حول مستقبل غامض تراءوا فيه أمام أنفسهم وكأنهم بين شقَّى رحى لا يستطيعون منها خلاصًا أو فكاكًا ... وعلى كل حال فقد استُقبل الرسول أحسن استقبال وردَّ الرسول التحية بأحسن منها واضعًا فى اعتباره أن يجعل من هذا

المجتمع المتناقض المفكَّك منطلقاً رحباً لأمة قوية ترفع راية التوحيد وتعلى كلمة الإسلام وترفع لواء الحق وتحطم دولة الشرك والبغى والعدوان تحتوى بذراعين من نور وإيمان عالمًا أنهكه الظلم وعبثت به يد الفساد.

أول خطبة جامعة للرسول فى المدينة:

كانت صلاة الجمعة قد أدركت الرسول فى بنى سالم بن عوف "آبار على فى الوقت الحاضر" فصلى الرسول هنالك بالذين كانوا معه، وكانت هذه أول جمعة صلاها الرسول فى المدينة وقد خطب فيها خبطة جامعة .. ونظرًا لأن هذه الخطبة تعتبر أول كلام يوجه لأهل المدينة من رسولهم وقائدهم وزعيمهم الذى التفوا من حوله وحيث إن لأول الكلام الذى يوجَّه مغزاه وله دلالته على مدى السياسة التى ينتهجها صاحبه فإنه يجمل بنا أن نورد قطوفًا من هذه الخطبة فى محاولة لتحليلها وإلقاء الضوء عليها .. لقد جاء فى هذه الخطبة(١):

"**الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره وأعادى من يكفره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمن، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل .. ومن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيدًا...**"

وهذا الكلام يحمل فى طياته فكرة واضحة ففضلاً عن دعوة الرسول الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له نرى محمدا صلوات الله عليه يجرد من نفسه رسولا من عند الله يهدى الناس إلى صراط مستقيم

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ج٣، ص ٢١٣.

ويحررهم من ربقة الخرافات وظلمات الجهل ويشق لهم طريقهم نحو النور والهدى والرشاد .. وكأن به صلوات الله وسلامه عليه وهو يدعو الناس إلى الإيمان به كرسول من عند الله يوجه كلامه إلى أهل الكتاب من اليهود ليفتح نفوسهم على حقيقة خالدة علّها تنفذ إلى أعماق قلوبهم فتهديهم إلى الحق حيث يقول لهم: ما محمد إلا رسول متمم للرسالات السماوية السابقة ومكمل لها ومن يطع الله ورسوله فقد أجاب داعى الحق واستمع إلى كلمة الله ويكون بذلك من الراشدين ومن يعصهما فقد أبعد فى الضلال ويكون بذلك من الغاوين.

ويمضى الرسول فى خطبته داعيًا الناس إلى تقوى الله ومراقبته والعمل لما بعد الموت والإحسان فى العمل ومعاداة أعداء الله والجهاد فى سبيله حق الجهاد... وهذه كلها مبادئ عامة جمعت تعاليمه ﷺ وصاغتها فى قالب رائع من الإيجاز البليغ وأحاطتها بإطار مشرق وضئ من توحيد الله والإخلاص له والخوف منه والعمل المجدى الدائب فى سبيل الخير والصالح العام وتطهير النفس وتخليصها من أوضار الحياة وشهواتها.

ولعل الرسول صلوات الله عليه كان أكثر طمعًا فى إسلام اليهود بوصفهم أهل كتاب قد يعرفون عنه الشئ الكثير مما قرأوه فى كتبهم لا سيما وأن ما جاء به لم يكن يخالف فى جملته دينهم الذى جاء به موسى عليه السلام ولم يكن ليهدم عقائدهم التى ورثوها من تعاليمه .. أقول: كان الرسول أكثر طمعًا فى إسلام اليهود من طمعه فى إسلام المشركين الذين تخالف مبادئهم مبادئه وتعاليمهم تعاليمه – إن كانت لهم تعاليم – وما كان أجدر بيهود أن يستجيبوا لداعى الله وصوت الحق وأن يكملوا دينهم بالدخول فى الدين الذى ارتضاه الله لعباده دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفا. أو على الأقل كان أجدر بهم أن يقفوا منه موقف المؤيد له المنتصر

لتعاليمه. أو إن شئت فقل ما كان أجرد بيهود أن يقفوا من الرسول موقف الذى لا يحرك ساكنًا ضده ولا يؤلب الناس عليه ولا يضع العراقيل فى طريقه محاولة منهم لخنق الدعوة فى أخطر مرحلة من مراحلها والقضاء عليها قضاء مبرمًا بالخديعة والدهاء، والدس والوقيعة، وإشاعة الفرقة بين المسلمين والكيد لهم سرًا وعلانية ... ما كان أجدر بيهود أن يستجيبوا لداعى الله ونداء الحق ... لكنهم لم يفعلوا .. وصدق الله العظيم: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].

ولعل مبادرة اليهود إلى حسن استقبال محمد فى بادئ الأمر لظنهم أن فى مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله فى دينهم والاستعانة به على تهويد جزيرة العرب حتى تتمكن من الوقوف فى وجه النصرانية التى أجلت اليهود – شعب الله المختار – عن فلسطين أرض الميعاد ووطنهم القومى فى زعمهم.(١)

نشأة الدولة الفتية بالمدينة:

حرص محمد ﷺ منذ اللحظة الأولى التى نزل فيها المدينة على تدعيم الروابط، وتقوية الصلات بين المسلمين وغيرهم من سكان المدينة وخاصة اليهود.. الذين حاول الرسول مخلصًا أن يتقرب منهم وسعى جاهدا لإنشاء علاقات ود معهم.. وتلك لعمرى سياسة رشيدة حازمة تدل على عمق النظر وثقوب الفكر وعظمة الرجل الذى جمع إلى جوار قداسة النبوة حنكة السياسى الماهر وحكمة الزعيم البصير ...

فما كاد الرسول يدرس حالة المدينة عن كثب بعد استقراره فيها حتى أدرك أنه أمام قوة يهودية كبيرة لا تقل عن قوة قريش تلك التى

(١) حياة محمد لهيكل، ص ١٨٧.

ناصبته العداء فى مكة إن لم تفقها سياسة ودهاء وثراء وحسن استعداد.. ومعنى ذلك أن المسلمين كانوا بالمدينة فى وضع دقيق بين قوتين عظيمتين:

قوة قريش فى الجنوب وقدنا صبتهم العداء حتى اضطرتهم إلى مغادرة أوطانهم والجلاء عن ديارهم .. ثم إنها لا تزال تترقب الفرصة للفتك بهم والقضاء عليهم.

وقوة اليهود فى الشمال وهذه موقفها من المسلمين فى بادئ الأمر على ما ظهر منهم كان موقفًا لا يدعو إلى القلق ولكن حقيقة ما كانوا يضمرونه نحو المسلمين ورسولهم كان غامضًا ومبهمًا ويدعو بشدة إلى أخذ الحذر.

فهل كان من المصلحة إذن أن يفتح المسلمون على أنفسهم جبهة قتال فى موطنهم الجديد وهم لم يلجأوا إليه إلا تخلصا من أهل مكة وأملا أن يجدوا فى دار هجرتهم أمنا وسلاماً تستطيع الدعوة أن تدرج فى ظلهما وتشق طريقها فى الحياة؟؟؟

لا شك فى أن المصلحة العامة كانت تقضى على المسلمين بوجوب إنشاء صلات ود وثيقة مع جيرانهم الجدد ليعيشوا فى صفو وسلام، ويتفرغوا لتأدية رسالتهم فى هدوء واستقرار .. وينبغى أن ندخل فى حسابنا إلى جوار ما قدمنا أن طبيعة الدعوة الإسلامية تتنافى والمبادأة بالحرب والعدوان لأنها دعوة إسلامية مسالمة تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة وهى لا تلجأ إلى العنف والشدة إلا حيث تضطرها الظروف إلى سلوك سبيل العنف والشدة ومن هنا عرف الرسول الأعظم صلوات الله عليه كيف ينفذ إلى لب الصواب والسداد بتوصله إلى تحقيق وحدة الأمة

فى يثرب وإلى وضع نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتعاون.

ولئن كان اليهود قد أحسنوا استقبال محمد أملاً فى استدراجه إلى دينهم فقد بادر هو إلى رد تحيتهم بمثلها وإلى توثيق صلاته بهم فتحدث إلى رؤسائهم وتقرب إليه كبراؤهم وارتبط معهم برباط المودة كأهل كتاب موحدين .. وبلغ من ذلك أنه كان يصوم يوم صومهم، وكانت قبلته فى الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بنى إسرائيل جميعاً".(١)

وعلى أساس هذا الشعور المتبادل فى بادئ الأمر وعلاقات الود التى سادت بين الطرفين تمكن الرسول ﷺ من عقد معاهدة صداقة وتقرير لحرية الاعتقاد وتعايش سلمى بين جميع الطوائف على أساس من العدالة والحق .. وتعتبر هذه المعاهدة من أروع الوثائق السياسية فى التاريخ حيث يقرر فيها الرسول الأصول العامة للحقوق الإنسانية السامية: من حرية الرأى و الدين والعقيدة ومن إرساء قواعد الأخوة الإنسانية خالصة من شوائب التعصب البغيض والأهواء المتقلبة...

نصوص من المعاهدة:

وقد أورد ابن هشام نص صحيفة المعاهدة ومن بين ما ورد فيها(٢):

"هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .. إنهم أمة واحدة من دون الناس وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين

(١) حياة محمد لهيكل، ص ١٩٠.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٢، ص٩٤-٩٨.

المؤمنين .. وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى وسيعة – طبيعة – ظلم أو إثم أ و عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض من دون الناس وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم وأن اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ويهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى ثعلبة وبنى الأوس ومواليهم وبطانتهم كبنى عوف سواء وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن الجار كا لنفس غير مضارّ ولا آثم ولا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ولا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله".

ولا يسع المتأمل فى هذه المعاهدة السياسية الخطيرة التى جاءت على غير مثال سابق إلا أن يحنى هامته ويتطامن فى خضوع أمام عظمة الرسول الفذة وعبقريته الخارقة وبصيرته المدركة ونفاذه البالغ إلى أبعاد المدى وأغوار الأعماق فى سياسة رشيدة بارعة كانت عبرة الماضى وخطة الحاضر وأمل المستقبل .. وفى الحقيقة لقد كانت هذه الخطوة من جانب الرسول صلوات الله عليه ممثلة فى تلك الوثيقة فتحًا جديدًا فى

الحياة السياسية والحياة العامة فى العالم حينذاك .. هذا العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد وتعصف به قوى الظلم والفساد وتنطلق فيه جحافل الشر بغير حساب .. لقد تقرر فى هذه المعاهدة حرية العقيدة وحرية الرأى ووحدة المدينة وحرمتها وحرمة الحياة العامة وحرمة المال وتحريم الجريمة والبغى والعدوان .. وبهذه المعاهدة استطاع الرسول أن يوحد بين جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وأن يجعل منهم أمة واحدة تستطيع بقوتها ووحدتها أن تجابه الظروف وتقهر الأحداث كما استطاع أن يرسى دعائم الأخوة على أساس أن صلة الدين مقدمة على غيرها من الصلات حتى صلة القرابة .. كما تقرر الوثيقة أيضاً أن للمجتمع حرمته وحقوقه على الأفراد وأظهر هذه الحقوق السهر على أمنه وحراسته وحمايته من عبث العابثين واستهتار المجرمين وإفساد المفسدين .. وكما نظمت هذه المعاهدة العلاقات بين المؤمنين أنفسهم نظمت كذلك العلاقات بينهم وبين جيرانهم اليهود وأنشأت منهم حلفاً يقضى باشتراكهم فى الدفاع عن المدينة إذا تعرضت للهجوم وصار لزامًا على الجماعة أن تقف صفًا واحدًا لصد هجمات الأعداء المغيرين كما ألزمت اليهود بالإسهام فى نفقات الحرب دون الاشتراك فيها عمليًا إلا فى الأحوال التى تتعرض فيها المدينة نفسها لهجوم .. كما قررت هذه المعاهدة أولاً وأخيراً أن مردَّ كل أمر يختلف فيه إلى الرسول ليفصل فيه باعتباره صاحب السلطة العليا ومصدر التشريع من قبل الله رب العالمين ...

هذا وإن المتأمل فى نص صحيفة المعاهدة يلحظ أنها جاءت خلوا من ذكر البطون الكبيرة من الأوس والخزرج وبنى قينقاع وبنى قريظة وبنى النَّضير ولكنها نصت على البطون الصغيرة من اليهود...(١)

وهنا رأيان: **أحدهما** أن هذه المعاهدة كانت خاصة بالعرب والبطون اليهودية الصغيرة باعتبارها كانت منتشرة بين البطون العربية ومتداخلة فيها ... **وثانيهما** أن هذه المعاهدة كانت قد نصت على البطون اليهودية الكبيرة ولكن مؤرخى العرب المتأخرين حذفوا أسماءها من المعاهدة فيما بعد لأنه ساءهم أن يذكر فيها تعاقد من جانب الرسول مع بطون خالفته وقاومته مقاومة عنيفة انتهت بالحرب وسفك الدماء ويناصر كلا من الرأيين جماعة من المستشرقين ... ونحن نستطيع أن نرجح أن الرسول صلوات الله عليه عقد هذه المعاهدة خاصة بالعرب والبطون اليهودية الصغيرة المتداخلة فى البطون العربية وأنه عقد عدة معاهدات أخرى غير هذه مع بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع، يتضح ذلك جيدًا من هذه المواقف المتعددة التى كان يقفها الرسول من جماعات اليهود المختلفة حسب المعاهدات المبرمة بينها وبينه، ولنستمع فى ذلك إلى الدكتور محمد حسين هيكل حيث يقول بعد أن أورد نصوصًا من المعاهدة استخلص منها ما استخلص: .. ولئن لم يشترك فى توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع فإنهم ما لبثوا بعد

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب لإسرائيل ولفنسون، ص ١٢٠ وما بعدها.

قليل أن وقعوا بينهم وبين النبى صحفًا مثلها[1] .. ويرى مثل هذا الرأى صاحب كتاب "تاريخ العرب وعصر الرسول"[2].

بداية العداء بين المسلمين واليهود والأسباب الجوهرية التى دعت إليه:

هكذا تمضى الدولة الفتية بالمدينة فى إرساء قواعدها على أسس متينة ودعائم وطيدة مما كان له أعظم الأثر فى تكوين شخصيتها القوية التى سيطرت على النفوس واستولت على القلوب فدخل الناس فى دين الله أفواجًا وازدادت شوكة المسلمين بالمدينة، وها هى ذى الزعامة تكاد تخلص لرسول الله ﷺ. وكان على اليهود معاودة التفكير من جديد فى موقفهم من محمد وأصحابه فلقد خبا فى نفوسهم الأمل فى ضم محمد إلى دينهم ليزدادوا به قوة ومنعة كما كانوا يقدرون بل لقد أصبحوا يخشون منه على دينهم والتأثير فى عامتهم على حين تقتضيهم تعاليمهم ألا يعترفوا بنبى من غير بنى إسرائيل وعلى ذلك فلم يكن فى مقدورهم الخلود إلى الراحة و الاطمئنان فى رحاب محمد وأصحابه. وقد جاء إسلام عبد الله بن سلام ذلك الحَبْر العالم من كبار أحبارهم وعلمائهم ودعوته قومه إلى الإسلام وتحبيبه إليهم مشجعاً لهم على رسم سياسة كيدية ينتهجونها إزاء الرسول محاولين إنكار نبوته والغض من شأنه والحط من قيمة تعاليمه وتنفير الناس منه وإلقاء الشك فيما يصدر عنه من أقوال وأعمال ومن هنا قامت حرب جدل بين محمد واليهود أشد وأنكى من تلك التى كانت بينه وبين قريش فى مكة ولقد تعاونت فى هذه الحرب قوى الشر والنفاق مع

(١) حياة محمد لهيكل، ص ١٩٢.

(٢) لعبد الفتاح شحاته، الكتاب ص ١٠٧.

القوى العالمة بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين ومسائل الدين وتمكن اليهود من تكتيل هذه القوى جميعها واستخدامها ضد محمد ودعوته .. فبإيعاز منهم كانت تتوالى الأسئلة المحرجة على الرسول بقصد التضييق عليه والحط من شأنه أمام جمهور المسلمين. وقد تصدى الوحى للإجابة عن هذه الأسئلة جميعها بعد مضى فترة عليها كان الرسول صلوات الله عليه يقضيها فى غم وهم لما كان يعلمه من نية خبيثة انطوت عليها قلوب هؤلاء الناس. وكانوا يدسون على المسلمين من أحبارهم من يتظاهر بالإسلام ويجلس مع المسلمين فى حلقات الرسول وهو يبدى بين الحين والحين من الشكوك والريب ما يحاول به أن يزيغ قلوب فريق من المسلمين ويفتنهم عن دينهم ويلقى على رسول الله من الأسئلة ما يظن أنه يزعزع إيمان المسلمين برسولهم ويهز عقيدتهم فيه وفى رسالة الحق التى يدعو إليها.. وقد بلغوا من تعنتهم حدًا جعلهم ينكرون ما فى التوارة من تعاليم حتى لقد كانوا يسألون – وهم الموحدون – عمن خلق الله قائلين: إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله؟ بل إنهم – وهم الموحدون أتباع الديانة السماوية – ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا عونا للمشركين الكافرين ضد محمد صاحب الرسالة الموحدة والديانة السماوية الشبيهة بدينهم وما كان لمثل هؤلاء وقد أعماهم الحقد وران على قلوبهم التعصب أن يتورعوا عن الإيقاع بين الأوس والخزرج وهما يمثلان جماعة الأنصار فنراهم وقد أوعزوا إلى شاب منهم كان فى مجلس يضم جماعة من الأوس والخزرج أن يذكرهم بيوم من أيامهم المشئومة فى الجاهلية وهو يوم "بُعَاث" حتى كادت تنشب بين الفريقين معركة طاحنة لولا أن تداركهم الرسول صلوات الله عليه فى الوقت المناسب.

وحسبنا أن نقرأ ما نزل من القرآن الكريم فى شأن هذا الجدال لنتبين شدته وعنفه فقد نزل صدر سورة البقرة إلى الآية الحادية والثمانين منها ونزل قسم عظيم من سورة النساء وكله يذكر هؤلاء الكتابيين وإنكارهم ما فى كتابهم ويلعنهم لكفرهم وإنكارهم أشد اللعنة .. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ. وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٧-٨٩].

ولم يكتف اليهود بذلك كله بل حاولوا فتنة محمد نفسه فقد ذهب إليه أحبارهم وأشرافهم وقالوا له "إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا وإنا إن اتبعناك اتبعتك اليهود ولم يخالفونا وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم إليك فتقضى لنا فنتبعك ونؤمن بك" وهنا ينزل الوحى بقول الله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

وهكذا استمر اليهود فى انتهاج هذه السياسة العدائية ضد محمد والمسلمين ولم يكن فى مقدورهم إخفاء حقيقة شعورهم والتستر عليه ومداراته فقد قامت إلى جوار ما قدمنا عوامل عدة وأحداث معينة كان لها أكبر الأثر فى إذكاء نار الحقد والبغضاء فى صدورهم ضد المسلمين وأهم

هذه العوامل مزاحمة المهاجرين المكيين لليهود اقتصاديًا ومنافستهم منافسة شديدة فى الشئون التجارية وإنشاؤهم سوقًا إلى جانب سوقهم مما كان له أخطر الأثر فى نفوس اليهود فعكفوا على الكيد للإسلام ومقاومته أملاً فى التخلص من المنافسة التجارية حيث يخلو لهم الجو ويتسنى لهم بسط سلطانهم الاقتصادى على البلاد كما كان أولاً خاليًا من المنافسة فإن الأوس والخزرج وعربان شمال الحجاز كانوا أجراء لليهود يعملون لهم ويبيعونهم حاصلاتهم ويشترون منهم حاجاتهم ولوازمهم بعكس القرشيين الذين لم يكونوا أقل خبرة فى الشئون الاقتصادية والتجارية عن اليهود فقد توارثوها عن آبائهم وكانت دعامة قوية فى بناء كيانهم الاقتصادى والمالى.

إن ما جبل عليه اليهود من حب المال وبغية التصرف فيه والسيطرة على أسواقه يجعلنا نجزم بأن للعوامل الاقتصادية المقام الأول فى مناوأة اليهود للإسلام وسعيهم للقضاء عليه وبلغ من ضيقهم بمحمد أنهم فكروا فى المكر به ومحاولة إقناعه بالجلاء عن المدينة كما أجلته قريش عن مكة محتجين بأن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس وكان به مقامهم وعليه أن يصنع صنيع الرسل من قبله إن كان حقًا رسولاً مثلهم لكن محمد لم تكن لتخفى عليه نواياهم وأساليب مكرهم وخداعهم فلم يركن إليهم ولم يلق بالا إلى أقوالهم وترهاتهم ومقتهم وكره أساليبهم وكل ما يمت إليهم بصلة حتى إنه ليشعر بالحرج والضيق فى التوجه إلى قبلتهم بيت المقدس ويتوجه إلى ربه راجيًا تحويله عنها ويستجيب الله دعوته ويحقق رجاءه فيوحى إليه على رأس سبعة عشر شهرًا من مقامه بالمدينة أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بمكة ونزلت

الآية الكريمة: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]. ويتأثر اليهود من ذلك ويحاولون مرة أخرى فتنة الرسول قائلين له: نتبعك إذا أنت رجعت إلى قبلتنا .. فنزل قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٢، ١٤٣].

ومع أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم ما تنطوى عليه صدور اليهود من خداع وغش ونفاق فإنه كان يصبر عليهم ويغض الطرف عن نفاق من نافق منهم متمثلاً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]. كما أنه كان يسوِّى بينهم وبين المسلمين فى المصالح العامة ويحترم شعائرهم وكان يكتفى بعقاب الأشخاص الذين يخالفون العهود ويخرجون عن الحدود والمواثيق التى كانت بينهم وبين المسلمين ولم يأخذ البرئ منهم بجرم المسئ كما فعل بكعب بن الأشرف وسلاَّم بن أبى الحقيق فقد اكتفى بقتلهما دون أن يتعرض لجماعة اليهود.

ومما لا شك فيه أ ن المصلحة كانت تقضى على المسلمين فى ذلك الوقت إنشاء علاقات ود وثيقة مع جيرانهم الجدد فلا يفتحون ميدان نضال فى موطنهم الجديد وهم لم يلجئوا إليه إلا هربا من العنت والظلم والتماسًا للأمن والسلام غير أن اليهود تمادوا فى خطتهم الكيدية واستمروا

فى غيهم يعمهون وحدثت منهم أشياء سببت صداماً فعليًا بينهم وبين المسلمين لم يكن من الميسور تلافيه وكانت عاقبة هذا الصدام وبالاً عليهم كما سيأتى مفصَّلاً.

والمؤرخون إذ يختلفون فى وصف الأسباب الظاهرة التى سببت هذا الصدام فإن من المجمع عليه عندهم أن النبى صلوات الله عليه زار سوقهم وسوق بنى قينقاع بعد رجوعه من بنى سليم فاجتمعوا حوله فدعاهم إلى الإسلام والدخول فى دينه وقال لهم: "يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وفى عهد الله إليكم .. فأبوا إجابة دعوته وأصروا على موقفهم واستكبروا استكبارا وقالوا فى غرور وتعنت "يا محمد إنك ترى أننا كقومك لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس .. وليست هذه هى المرة الأولى التى يوجه فيها الرسول لليهود مثل هذه الدعوة فقد سبق للرسول أن وجَّه إليهم مثل هذه الدعوة حينما انعقد مؤتمر الأديان الثلاثة بالمدينة بعد أن حضر إليها وفد من نصارى نجران عدتهم ستون راكبًا ويقف فيه الرسول كاشفًا عن أسمى غاية روحية إنسانية لا تقف أمامها مطامع السياسة ومآرب أرباب المال وذوى الملك والسلطان حيث يملى عليه ربه الصيغة التى يواجه بها اليهود والنصارى والناس كافة ويقول فيها: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

وواقع الأمر كان يؤكد أن دخول اليهود فى الإسلام يعتبر وسيلة فعالة وحلا معقولا لهذا الخلاف الذى بدأ يتخذ شكلاً خطيرًا فى تاريخ العلاقة اليهودية الإسلامية فقد أخذ اليهود يكيدون للإسلام والمسلمين بكافة الطرق وينتهزون الفرص لمحاولة قتل الرسول تارة وتأليب سائر العرب على المسلمين تارة أخرى وتحزيب الأحزاب ضدهم ثم خيانة عهود المسلمين ونقضها فى أحرج الأوقات وانضمامهم إلى صفوف العدو ليستأصلوا شأفة المسلمين ويبيدوهم عن آخرهم.

أما عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه فقد تكونت عنده فكرة معينة إزاء اليهود تكاتفت على تكوينها الأحداث والظروف والملابسات التى تجمعت منذ اللحظة الأولى لنشأة الدولة الفتية بالمدينة. وعلى أساس هذه الفكرة كانت تلك النتائج الخطيرة التى أدت إلى إجلاء اليهود عن المدينة وتقتيلهم وتشريدهم جزاء وفاقا فهم عند الرسول قوم لا يؤمن جانبهم ولا يركن إليهم ولا ينبغى للمسلمين أن يأملوا عيشا آمنًا فى جوارهم بعد كل ما بدا منهم وظهر من غدرهم .. فلابد إذن من الخلاص منهم وأيسر شئ لتحقيق ذلك الخلاص هو إجلاؤهم عن موطن الإسلام ومدينة السلام. وقد قوَّى هذه الفكرة لدى الرسول ما كان ينزل به الوحى من تصوير شدة عداوة اليهود للمسلمين والكيد لهم من مثل قول الله تعالى: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ [المائدة: ٨٢]. فلم يكتف بجعلهم قرناء للمشركين فى شدة العداوة للمؤمنين بل نبَّه على رسوخ قدمهم فى هذه العداوة بتقديمهم على الذين أشركوا .. ولعمرى إنهم لكذلك وأشد ...![١]

(١) الكشاف للزمخشرى، ج١، ص ٤٧٨.

وفيما يلى نصور سلسلة الأحداث المتتابعة التى انتهت بدحض اليهود وكسر شوكتهم والتى جاءت نتائجها متمشية مع الفكرة الرشيدة التى قامت بنفس الرسول ﷺ إزاء اليهود.

حرب باردة

هذا الموقف الدقيق فى هذه الظروف الحرجة اقتضى من الرسول ﷺ أن يخطو خطوة عملية إيجابية فى مواجهة اليهود أعداء الله وأعداء الإسلام وألا يقتصر على موقف سلبى تجاه خصومه وأعدائه فكانت هذه المناورات الحربية فى مختلف الأنحاء وإرسال السرايا فى كل اتجاه خير إشعار للعدو بأن للمسلمين من القوة ما يمكنهم من القضاء على أية فتنة قد توجه ضدهم ويكون ذلك بمثابة حرب أعصاب أو ما يسمى بالحرب الباردة ضد من تحدثه نفسه بالكيد للإسلام والمسلمين وخاصة اليهود الذين أخذوا ينتهجون خطة إيجابية خطيرة ضد المسلمين وأغراهم على ذلك حلم الرسول فى بادئ الأمر وتغاضيه عن حقدهم وعدواتهم ولم يكن ذلك من الرسول ﷺ إلا سياسة رشيدة موفقة فى مثل هذه الظروف التى اكتنفت نشأة الدولة بالمدينة بيد أن الموقف ازداد سوءًا عقب عودة المسلمين مثقلين بالغنائم من "بدر" وبعد رجوعهم موفقين من "بنى سليم" فقد شعر اليهود بتزايد قوة المسلمين ورأوا هذا القرشى المكى الذى وفد عليهم يزداد بأسًا وسلطانًا ويكاد يكون صاحب الكلمة فى أهل المدينة جميعا لا فى أصحابه وحدهم، وبتزايد هذا الشعور من جانبهم ازداد لهيب الحقد فى قلوبهم وغلت مراجلها بنيران العداوة والبغضاء.

وهنا تبدل الموقف من جانب المسلمين فقد استقر رأيهم على تصفية الحساب مع يهود المدينة أى يهود بنى قَيْنُقاع وحدهم وقد كانوا يقيمون فى داخل يثرب، وعلى نبذ سياسة التغاضى عمومًا وبالنسبة

للجميع .. وقد تمثلت هذه السياسة بوضوح فى بعض الأحداث التى نجملها فيما يلى:

مقتل أبى عَفَك وعصماء:

كان أول مظهر لهذا التبدل فى السياسة الإسلامية إزاء اليهود وغيرهم ذلك الموقف الذى وقفه سالم بن عُمَيْر من أبى عَفَك أحد بنى عمرو بن عوف لأنه كان يرسل الأشعار يطعن بها على محمد وعلى المسلمين ويغرى بهم الناس حتى بعد "بدر" فقد أخذ سالم بن عمير على نفسه عهدًا بالقضاء على أبى عَفَك هذا.. وفعلا نفذ ما أراد .. وكانت عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد تعيب الإسلام وتؤذى النبى وتحرض عليه وظلت كذلك إلى ما بعد بدر فجاءها يومًا عُميْر بن عوف فى جوف الليل وحولها نفر من ولدها نيام ومنهم من ترضعه فنحَّى الطفل عنها ووضع السيف فى صدرها حتى أنفذه من ظهرها .. وقد يكون فى ذلك بعض القسوة ولكن إذا تمثلنا صنيع هذه المرأة وتحريضها على عداوة المسلمين والفتك بهم وتماديها فى انتهاج هذه الخطة دون أن ترتدع أمكننا أن نتفهم الموقف على حقيقته من جانب مسلم غيور تحمل تبعة الأمر ومسئوليته وتصرف وفق ما ارتآه محققًا للغاية والهدف.

مقتل كعب بن الأشرف:

وجاء إلى جوار هاتين الحادثتين مقتل كعب بن الأشرف – وهو يهودى من طيئ ثم من بنى نبهان وأمه من بنى النضير – وهو الذى قال حين علم بمقتل سادات مكة يوم بدر: "هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس .. والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها"

وحين تأكد لديه ذلك انطلق إلى مكة يحرض الناس على محمد ويستثيرهم بالشعر وبكاء أصحاب القليب وكان مما قاله من الأشعار(١):

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت شراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أ صيب به من أبيض ماجد ذى بهجة تأوى إليه الضيَّع
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت حمال أثقال يسود ويربع
ويقول أقوام أسر بسخطهم إن ابن الأشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ظلت تسوخ بأهلها وتصدع

بل إن ابن الأشرف قد تجاوز الحد حين أخذ يشبب بنساء المسلمين بعد عودته إلى المدينة واستاء المسلمون وبلغ من شدة غيظهم منه أن أجمعوا على قتله وفعلاً مكروا به واستدرجوه وقتلوه ..

وقد زاد هذا الحادث من مخاوف اليهود وبذر بذور القلق فى نفوسهم بيد أنهم لم يرتدعوا ولم ينزجروا بل تمادوا فى أساليبهم الخبيثة وطرائقهم المكشوفة المفضوحة .. ونستطيع أن نلمس ذلك بوضوح فى حادث المرأة العربية فى سوق الصاغة.

حادث المرأة العربية فى سوق الصاغة:

فقد روى ابن هشام فى سيرته أن عربية قدمت إلى سوق اليهود بجلب لها فباعته ثم جلست إلى صائغ يهودى منهم فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى فانتهز يهودى فرصة انشغالها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها وسخروا منها

---

(١) انظر تاريخ الأمم الإسلامية، للشيخ الخضرى.

وصاحت المرأة واستنجدت فوثب رجل من المسلمين على اليهودى فقتله وأبت اليهود أن تسكت فشدوا على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع.

ويبدو أن حدوث هذه الحادثة التى أوردها ابن هشام عقب التحذير الذى وجهه إليهم الرسول عند اجتماعه بهم فى سوقهم بعد رجوعه من بنى سليم ودعوته إياهم الدخول فى دينه ثم ما كان من استكبارهم وعنادهم ومجابهتهم الرسول بقولهم: "والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس" كان ذلك مع كل ما تقدم من أعمال اليهود العدوانية وأساليبهم المنكرة سببًا فى شن الحرب على يهود بنى قينقاع وحصارهم وإجلائهم آخر الأمر. وليست المسألة مسالة حادثة وقعت لامرأة عربية فى سوق اليهود ولكن المسألة برمتها ظروف وملابسات عدة أدت بالضرورة إلى اتخاذ قرار حاسم فى شأن اليهود ولا داعى لمحاولة بعض الباحثين جرح خبر المرأة العربية التى أوردها ابن هشام بحجة عدم ورودها فى المصادر الأخرى إذ أن الأمر كما قلت ليس أمر امرأة عربية أعتدى عليها وإلا لاكتفى الرسول بعقاب الجناة ولكنها كانت مسألة بالغة الدقة والحساسية بالنسبة للمسلمين الذين تزايد شعورهم بخطر اليهود فى نفس الوقت الذى بدأوا فيه يشعرون بقرب حملة قريش عليهم من وقت لآخر ثأرًا منهم ليوم بدر ولا ريب أن مثل هذا الوضع يقتضى حزمًا وعزمًا عظيمين .. ولذا فقد كان الرسول صلوات الله عليه فى غاية الحزم والقوة حين قر رأيه على التخلص من يهود المدينة – بنى قينقاع –.

بين الرسول وبنى قينقاع:

حمل المسلمون على يهود بنى قينقاع فى شهر شوال من السنة الثانية للهجرة والتجأ هؤلاء إلى حصنهم ويبدو أن عددهم كان سبعمائة كما يؤخذ من أقوال عبد الله بن أُبَىّ زعيم الخزرج "ثلثمائة دارع وأربعمائة حاسر" ويبدو كذلك واضحًا مما يؤخذ من المصادر التى أتيح لى الاطلاع عليها أن يهود بنى قينقاع كانوا يعتمدون فى معركتهم ضد المسلمين ورفضهم التسليم لهم على تأييد حلفائهم من الخزرج كما أيدتهم اليهود يوم "بُعَاث" وانضمت إليهم ومما لا شك فيه أيضًا أنهم كانوا يعتمدون على نصرة إخوانهم من اليهود حول المدينة ولكن آمالهم ذهبت أدراج الرياح فقد حاصرهم المسلمون فى دورهم خمسة عشر يومًا متتابعة لا يفلت منهم أحد ولا يتسرب إليهم طعام أو شراب ولم يجرؤ إنسان ما على مساعدتهم أو حتى تخفيف ضغط الحصار عليهم وما أغنى عنهم عبد الله بن أبى زعيم الخزرج فى موقفهم شيئًا فما كان لقومه أن يطيعوه فى الخروج على الملمين لتأييد اليهود وتجديد الحرب بينهم وبين أبناء عمهم الأوس والنازحين إليهم من المهاجرين المكيين ولا مصلحة لهم فى ذلك وخاصة بعد أن ذاقوا لذة النصر والغنم فى بدر وبنى سليم. وكذلك لم يغن عنهم إخوانهم من اليهود شيئًا فقد قعد بنو قريظة وبنو النضير عن نصرتهم حين حاصرهم المسلمون ودل ذلك دلالة واضحة على فقدان الروابط الاجتماعية التى تربط بين يهود الحجاز أو على الأقل ضعف هذه الروابط.

كذلك لم يكن فى مقدور يهود خيبر فعل شئ أو تقديم أية مساعدة لإخوانهم لبعد المسافة بين البلدين إذ كانت تبلغ حوالى مائة وعشرين كيلو

مترا أو مسيرة أربعة أيام، وقصر مدة الحصار لم يكن ليساعد على وصول الأخبار إلى خيبر وتجهز يهود خيبر وسيرهم لنجدة إخوانهم.

والذى يظهر واضحًا هنا أن اليهود لم يكونوا يقدرون خطر الإسلام عليهم حق قدره أو قل كانوا يأملون فى القضاء عليه من غيرهم وهم القرشيون الذين كانوا يقفون لمحمد ودعوته بالمرصاد والذى أود أن أذكره هو أنه قد كان لهذا الخذلان أعظم الأثر فى تحطيم معنويات بنى قينقاع الذين قرَّ رأيهم على التسليم والرضوخ لحكم محمد.

ولم يكن من المنتظر أن يستسلم بنو قينقاع بهذه السهولة وهم الذين كانوا يقولون تهديدًا للمسلمين أنهم إذا دخلوا حرباً معهم فسيعلمون أنهم هم الناس .. إلى آخر ما زعموه باطلاً وغروراً .. نعم لم يكن من المنتظر منهم ذلك فهم لم يريقوا قطرة واحدة من دمائهم ولم يطلقوا سهمًا واحدًا فى الدفاع عن موطنهم والذود عن كرامتهم مع أنهم كانوا ذوى عدد وعدة وفى حصن حصين ولا ريب أن ذلك أثر من آثار الجبن الذى جبل عليه اليهود فهم لم يكونوا فى يوم من الأيام أهل شجاعة وحمية وإقدام بل على العكس فى ذلك فكل الشواهد تشير إلى أنهم على اختلاف أجناسهم وفى شتى أطوارهم ومراحل حياتهم أهل خسة وجبن ونذالة وأمضى سلاح عندهم هو الدس والوقيعة والمكر والدهاء وكلها أسلحة واهية إزاء الإيمان القوى والعزيمة الفتية والحزم البالغ.

إن معانى الخسة والنذالة والجبن لتسرى مع الدماء الخبيثة حارة متدفقة فى العروق عبر القرون والأجيال .. أو ليسوا هم سلالة من دعاهم موسى عليه السلام إلى الجهاد فكان ردهم عليه .. اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ..؟ نعم إنهم من سلالتهم والطباع واحدة ومن يشابه

أباه فما ظلم. وسيكونون كذلك أبد الدهر.. وتلك نقطة ضعف شنيعة فيهم وقد استغلها الرسول ﷺ حين استقر به الرأى على التخلص منهم نهائيًا فكان يعاجلهم بالعزيمة والحزم ولا يلقى بالاً إلى أراجيفهم ولا يتأثر بنفاقهم وخداعهم ولا يتهاون معهم أبدًا وخاصة بعد أن طرح سياسة اللين والتغاضى التى أطمعتهم فى المسلمين حين كانت ظروفهم لا تسمح باستعمال وسائل العنف وأساليب البطش والفتك.

ويبدو أن النية كانت معقودة على البطش بيهود بنى قينقاع وتقتيلهم جميعًا بعد تسليمهم يؤكد ذلك لنا هذا الإلحاح المتواصل من جانب عبد الله بن أبى بن سلول حليف اليهود فى طلب العفو عنهم من رسول الله فقد ورد أنه قال له: يا محمد أحسن إلىَّ فى موالىّ. فأبطأ عليه النبى. فكرر الطلب. فأعرض النبى عنه. فأدخل يده فى جيب درعه فتغير رسول الله وقال له: أرسلنى. وغضب حتى رأوا لوجهه ظُلَلا ثم أعاد والغضب باد فى نبرات صوته: أرسلنى ويحك. قال ابن أبى: لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة. إنى والله امرؤ أخشى الدوائر..".

وكان لهذا الإلحاح المتواصل أثره وخاصة بعد أن تدخل عبادة بن الصامت وتوسط لدى الرسول فرأى صلوات الله عليه أن يجعلها يدَ بِرٍّ ورحمة وإحسان يقدمها لهؤلاء جميعاً فعفا عنهم واكتفى بإجلائهم عن المدينة وقد أطمع ذلك ابن أبى فحاول أن يحدث الرسول فى شأن بقائهم ومقامهم بالمدينة لولا أن حال دون ذلك أحد المسلمين الذى اشتجر مع

ابن أُبَيٍّ وشجه. وقد شق ذلك على اليهود ورأوا أنهم لا مقام لهم فى بلد يشج فيه حليفهم ولا يستطيعون عنه دفاعًا.

وقد أشرف على عملية الجلاء عبادة بن الصامت زعيم الخزرج واستمرت هذه العملية مدة ثلاثة أيام غادروا المدينة خلالها متجهين إلى الشمال ومعهم نساؤهم وأطفالهم وذراريهم فنزلوا فى الشرارات (أراضى شرقى الأردن الجنوبية) حيث أقاموا هناك زمنًا ومنها احتملوا ما معهم وساروا صوب الشمال حتى بلغوا أَذْرِعات على حدود الشام وبها أقاموا.

هذا وقد غنم المسلمون من يهود بنى قيقناع كثيرًا من الأسلحة وأدوات الذهب واقتسموا بيوتهم ومنازلهم ولا شك أن لهذا الانتصار والتفرد بالسيادة فى المدينة والمغانم التى غنموها أكبر الأثر من الناحية السياسية والأدبية والمادية والمعنوية.

المستشرقون ومسألة بنى قَيْنُقاع:

انتقد بعض المستشرقين سلوك المسلمين إزاء اليهود مدعين أن حادث المرأة العربية فى سوق الصاغة كان من الممكن تسويته بسهولة. ونحن معهم فى أن هذه المسألة كان من الممكن جدًا أن تسوى بكل سهولة .. ولكن يبقى أن الأمر لم يكن كما قلت أمر امرأة عربية اعتدى عليها بل كان أمرًا أشد خطورة على المسلمين من كل ما عداه فى مثل ظروف نشأة هذه الدولة وأقل تهاون فيه كان من الممكن أن يؤدى إلى أسوأ النتائج وأوخم العواقب فقد أصبح اليهود مصدر قلق وإثارة للفتن والاضطرابات فى الجبهة الداخلية فى الوقت الذى كانت تعبَّأ فيه القوى وتكتَّل الجهود ضد العدو فى الجبهة الخارجية ولم تنفع معهم كل أساليب اللين واللطف والتحذير والإقناع فلم يبق إذن إلا سلوك سبيل القوة معهم.

ولم تكن حادثة السوق إلا شرارة ألهبت المشاعر الثائرة المكبوتة ضد اليهود فكان ما كان.

بين قريش واليهود:

عرف أبو سفيان زعيم المشركين كيف يستغل الظروف ضد المسلمين الذين أذاقوه وقومه الهوان فى موقعة بدر؛ فقد رأى أن الفرصة سانحة بعد حادثة بنى قينقاع لكى يجذب اليهود إلى صفه، ويكوِّن منهم قوة عدائية إلى جانب قريش وحلفائها تكون فى مواجهة محمد وأتباعه، ففى شهر ذى الحجة من السنة الثانية للهجرة أى بعد شهرين من غزو بنى قينقاع وطردهم من المدينة كان أبو سفيان قد غادر مكة فى نحو مائتى راكب من قريش سالكاً طريقًا قديمًا غير مألوف، وظل يغذُّ السَّير حتى نزل فى جبل يقال له "نيب" على مسافة خمسة عشر كيلو مترا من المدينة، وفى هدأة الليل خرج ميمما وجهه شطر بنى النضير وهم ينزلون غربى المدينة، وهناك حاول الاجتماع بكبير من كبرائهم وهو "حُيَىُّ بن أَخْطب" ولكن الرجل رفض مقابلته، فقصد أبو سفيان أطمة "سلام بن مِشْكَم" سيد بنى النضير فدخل عليه، وقضى عنده ليلته، ولا شك أن أبا سفيان قد أسرَّ إلى "سلام بن مِشْكَم" بدخيلة نفسه، وما يرجوه ويأمله من حشد قوى اليهود ضد محمد وأتباعه الذين أجلوا أبناء عمومتهم بنى قينقاع عن أرضهم وديارهم، ذلك الإجلاء المهن الذى كان له أعمق الأثر فى نفوس جيرانهم اليهود، وكانت هذه واحدة من خطط أبى سفيان التى رسمها استعداداً للانتقام المهول من المسلمين .. ويلوح لى أن اليهود لم تكن عندهم الشجاعة الكافية لمجابهة محمد وأتباعه بالعداء والانقياد لحلف قريش وعلى ذلك فقد أخذوا يتعللون بالاتفاقات التى تربطهم بمحمد والتى

تلزم اليهود بالدفاع عن المدينة مع المسلمين إذا هاجمها مهاجم أو أغار عليها مغير، كما أنه ليست لهم أية مصلحة فى حرب يخوضونها ضد المسلمين، لا سيما وأن العلاقات بينهم وبين المسلمين كانت حتى ذلك الوقت حسنة إجمالاً .. وهنا ينبغى أن نقف وقفة متأنية نسجل خلالها انتصاراً مجيداً لسياسة الحزم التى انتهجها الرسول إزاء اليهود، هذه السياسة التى جعلت اليهود يفكرون ويقدرون، ثم يعاودون التفكير والتقدير قبل أن يخطوا خطوة واحدة رعناء ضد محمد وأصحابه .. وكأنى أسرح بخاطرى عبر القرون الماضية لأبصر "سلام بن مشكم" سيد بنى النضير شادًا على يد أبى سفيان معاهدًا ومؤكدًا انضمام يهود إلى حلف قريش لو قدِّر للرسول ألا يلتزم بهذه السياسة الحازمة القوية إزاء اليهود الذين أرغمتهم الظروف على اتباع خطة مسالمة نحو المسلمين فى هذا الوقت الذى كان أبو سفيان يعبئ فيه القوى ويحشد الجهود ضد محمد وأتباعه، بل إن بعضهم وقف موقفًا إيجابياً وتجهز واستعد للقتال ضمن جيش المسلمين مع حليفهم ابن أبى؛ فقد ورد أن محمدًا حين تقدم بالمسلمين متجهًا إلى أُحُد نزل مكانًا به صنمان اسمه "الشيخان" شيخ أعمى وشيخة عمياء وهناك بصُر بكتيبة لا يعرف أهلها، فسأل عنها فقيل: هؤلاء حلفاء ابن أُبُىّ من يهود، قال عليه السلام: "لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا" فانصرف اليهود عائدين إلى المدينة(١). ولعل خفاء حال الكتيبة على الرسول وعدم معرفته لأفرادها جعله يشك فى أمرهم، ويرتاب فى نواياهم، وإلا فقد ورد أن الرسول دعا يهود بنى قريظة وبنى النضير إلى الاشتراك مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة، عملاً بما

---

(١) حياة محمد لهيكل، ص ٢٥٨.

تقضى به المعاهدة المعقودة بينهم، إلا أن اليهود تعللوا بأن المعركة تقع فى يوم "السبت" وهم لا يحملون سلاحًا فيه، ولكن "مُخَيْرِيق" من أحلاف بنى النضير شذَّ عن جماعته وقاله لهم "لا سبت لكم" وأخذ سيفه وعُدَّته وانطلق محاربًا فى صفوف المسلمين وقال: إن أصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ما شاء، وقاتل حتى قُتل، فقال النبى ﷺ كلمته المشهورة "مخيريق خير اليهود"(١).

ويجب أن نلحظ هنا أن انقياد الرسول وإذعانه للرأى القائل بالخروج من المدينة، وملاقاة العدو خارجها يوم أحد كان مشجعا ليهود بنى قريظة وبنى النضير فى اتخاذ هذا الموقف المتخاذل، لأن المعاهدة نفسها تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التى تقع خارج المدينة بيد أن هناك من المؤرخين من يزعم أن النبى لم يستنصر باليهود، ولم يدعهم إلى الاشتراك معه فى القتال؛ فقد روى ابن هشام أن الأنصار يوم أحد قالوا للرسول: يا رسول الله .. ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ فقال لهم: "لا حاجة لنا فيهم"(٢).

وما أجهد الدكتور "إسرائيل ولفنسون" فيه نفسه لتبرئة بنى النضير من تهمة الهم باغتيال محمد وتركيزه على عدم اشتراكهم فى واقعة أحد كسبب رئيسى لإجلائهم أمر لا قيمة له لأن السياسة فى القرارات الحاسمة تعتمد على جملة من الشواهد والأحداث والمواقف يدركها القائد والزعيم

---

(١) نشأة الدولة الإسلامية، ص ٨٠.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٨.

ومن بيده الأمر ونحن هنا مع قرار حاسم لرسول يوحى إليه من قِبَل ربه ولا ينطق عن الهوى.[1]

مع بنى النضير:

أصاب المسلمين ما أصابهم "يوم أحد"، بعد أن كان النصر قد رفرف عليهم وأظلهم، ولقد كان لهذه الهزيمة صداها فى المدينة وأثرها البالغ فى الخطورة، إذ أخذت رءوس الشر تبدو بعد أن أعياها طول التوارى، وأخذ دعاة الهزيمة من المنافقين واليهود يثيرون جوًّا من القلق والاضطراب ويشيعون الشائعات، ويقللون من هيبة محمد وأتباعه، ويرجفون فى حق الإسلام والمسلمين، ولقد كان ما أصاب المسلمين بالرجيع وبئر معونة[2] حافزا لهم على التمادى فى الاستهانة والاستخفاف والتربص بالمسلمين، وكان لزاماً على الرسول أن يجابه هذه الظروف بسياسة وكياسة وحزم وبعد نظر، فليس شئ أشد على المسلمين يومئذ خطرًا من أن تضعف هيبتهم فى النفوس، وتتصدع وحدتهم بفعل الدعاية السيئة، وإشاعة روح الهزيمة والشك .. وكان على الرسول أن ينتظر حتى تبدر منهم بادرة خيانة ليبطش بهم، ويلقنهم درسًا لن ينسوه مدى الحياة

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب، ص ١٣٥ وما بعدها. وانظر صور من حياة الرسول فى المدينة المنورة، ج٢، ص ١٤٩-١٥٧.

(٢) حادثتان من حوادث الغدر والخسة للقبائل المشركة راح ضحيتها نفر من خيرة أصحاب النبى من حفظة القرآن الكريم عند مياه "الرجيع" لهذيل كان عاصم بن ثابت وخُبَيْب بن عدى وزيد بن الدُّثُنَّة وعبد الله بن طارق وغيرهم ممن قاتلوا حتى قتلوا وهؤلاء هم شهداء الرجيع أما شهداء بئر معونة بين أرض بنى عامر وحرة بنى سُلَيْم فكان على رأسهم "المنذر بن عمرو" فى أربعين من خيار المسلمين، وقد قتلوا عن آخرهم وكان فى ركائب القوم عمرو بن أمية الضَّمْرى الذى أتيحت له فرصة قتل رجلين من بنى عامر كانا على عهد وأمان من رسول الله وقال له "لقد قتلت قتليلين لأدينهما" وظل شهرًا يدعو على قتلة أصحابه فى بئر معونة.
صور من حياة الرسول، ج٢، ص ١٤٤ وما بعدها.

حتى تعود للمسلمين هيبتهم، ويخشى جيرانهم بأسهم، وكانت فرصة حاولت بنو النضير انتهازها فى ظرف معين ظهرت فيه خستهم ونذالتهم ولؤمهم وخبثهم، ولكن شاء الله أن يفضح أمرهم وتكون هذه الفرصة التى انتهزوها وبالاً عليهم؛ فقد حدث أن قتل عمرو بن أمية الضَّمْرى رجلين من بنى عامر بعد أن خلص من يد عامر بن الطفيل فى يوم بئر معونة هو وكعب بن زيد، وكان الرجلان على أمان من رسول الله ﷺ، وكان عمرو بن أمية قد التقى بهما فى القرقرة على الطريق وهو عائد إلى المدينة فقتلهما ثأرا لنفسه ولأصحابه ولما أبلغ النبى ذلك قرر دفع ديتهما، وكان أبو براء عامر بن مالك "ملاعب الأسنة هو الذى عرض على الرسول أن يبعث رجالاً من أصحابه إلى أهل نجد وقال: أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك"(١).

ونظرًا لما كان بين المسلمين وبنى النَّضِير من حلف يقضى بالتعاون على دفع الدية الواجبة على أحد الفريقين فقد خرج الرسول إلى بنى النضير فى عشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعلى وطلب منهم المعونة فى دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية خطأ من غير أن يعلم بعقد الجوار والأمان لهما من قِبَل الرسول، فوافقوا على المعونة وأظهروا الغبطة والبشرو حسن الاستعداد لكنهم دبروا فيما بينهم أمرا حين وجدوا محمدا قاعدا مستنداً إلى جدار من بيوتهم وظنوا أن إلقاء صخرة عليه تريحهم منه لكن وحى السماء كان أسرع منهم إلى رسول الله إذ قام مسرعا وقفل راجعا إلى المدينة وأصحابه يظنون أنه قام لبعض أمره، أما اليهود فقد اختلط الأمر عليهم ولم يعودوا يعرفون ما يصنعون ولا

(١) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٤٩-٦٠، وتاريخ الطبرى، ج٣، ص ٣٠-٣٣.

كيف يتصرفون فهم إن غدروا بهم فمحمد لا شك منتقم منهم أسوأ الانتقام، وإن هم تركوهم فلعل مؤامرتهم لا يكون قد افتضح أمرها فيظل ما بينهم وبين المسلمين من عهد قائما .. لكن محمدا أخبر أصحابه بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وبعث النبى يدعو إليه محمد بن مسلمة وقال له: "اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم إن رسول الله" أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بماهممتم به من الغدر بى، لقد أجلتكم عشرا فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه"(١)، ولم يستطع بنو النضير جوابا إلا أن قالوا لمحمد ابن مَسْلمة: يا محمد ما كنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس – يشيرون إلى تحالفهم وإياهم من قبل فى حرب الخزرج – وكان رد محمد عليهم قوله: "تغيَّرت القلوب".

ولم يمض على ما حدث بضعة أيام حتى كانت رسل عبد الله بن أبى بن سلول تطرق أبواب بنى النضير تحضهم على الثبات، وعدم الاستماع لتهديد محمد، ويعدهم بالنصرة والمعونة والوقوف إلى جوارهم.. ويبدو أن كثيرًا من بنى النضير لم يكونوا على ثقة من وعد ابن أبى؛ فقد سبق أن أخلف وعده مع بنى قينقاع، كما أن بنى قريظة كانوا فى هذه الآونة على عهد مع محمد، فلم يكن فى رأيهم بد من الإذعان والخضوع لمشيئة محمد، بيد أن زعيمهم "حُيَىُّ بن أخطب: حَرَّضهم على الثبات والمقاومة وعدم الاستسلام، مشيرًا عليهم بترميم الحصون وتدريب الأزقة، ونقل الحجارة إليها، ذاكرا لهم أن ما عندهم من الطعام يكفيهم سنة، والماء لا ينقطع عندهم، ومحمد لن يحاصرهم سنة كاملة ..

---

(١) حياة محمد، ص ٢٧٤.

وهكذا انقضت العشرة أيام، ولم يخرجوا من ديارهم .. قال ابن هشام[1]: "وعندئذ أمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم[2]، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وذلك فى شهر ربيع الأول فحاصرهم ست ليال فتحصنوا منه فى الحصون، فأمر رسول الله بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها؟! ولا شك أن هذا الصنيع كان خطة حكيمة، وسياسة رشيدة من الرسول، فقد عرف عنهم تعلقهم بالأموال فأمر بقطع النخيل وتحريقها حتى لا يكون فى تعلقهم بها ما يشجعهم على الاستمرار فى الدفاع، والتحمس للقتال؛ ولذا فقد انهارت دعائم معنوياتهم، وعبثًا حاولوا انتظار عون أو مدد من ابن أُبىٍّ أو غيره، وتبدى لهم سوء مصيرهم إن هم أصروا على موقفهم، فبعثوا إلى محمد ﷺ يسألونه أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة .. وبعد مفاوضات بين الفريقين صالحهم الرسول على الشروط الآتية:

أولاً: جلاء بنى النضير عن منازلهم وأراضيهم.

ثانياً: تصان دماؤهم وأرواحهم.

ثالثاً: يحق لكل ثلاثة منهم أن يحملوا بعيرًا ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره.

رابعاً: يسلمون أسلحتهم للمسلمين.

---

(١) السيرة، ج٣، ص ٦٠ وما بعدها.

(٢) وهم على خمسة كيلومترات من المدينة إلى الشمال.

وخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وكان أشرافهم من سار منهم إلى خيبر "سلام بن أبى الحقيق" و"كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق" و"حيى بن أخطب" .. فلما نزلوها دان لهم أهلها ..

وهكذا تم إجلاء بنى النضير دون أن يشهر حسام، أو يطلق سهم، وإنما هو الحصار من جانب المسلمين، والاختباء والترقب وراء الأسوار من جانب اليهود .. ويحاول صاحب كتاب "نشأة الدولة الإسلامية" أن يجد تعليلاً معقولاً لهذا التخاذل الذى بدا بين اليهود، ولكنه لا يعثر على تعليل معقول فيقول(١):

"وقد بحثنا فى شتى المصادر اليهودية والأوربية علنا نجد تعليلاً معقولاً لهذا التخاذل الذى بدا بين اليهود، فلم نعثر على شئ، ولئن اغتفرنا لبنى النضير وبنى قريظة قعودهم عن نصرة بنى قينقاع بقولنا إنهم كانوا يرجون أن تحل المسألة صلحًا، أو أنهم ما كانوا يتوقعون أن يئول الأمر إلى إجلائهم، فمثل هذا التعليل غير مقبول بالنسبة لبنى قريظة لأنهم عرفوا بالاختبار أن تغلب المسلمين مؤذن بجلائهم". ١ هـ كلامه .. ويغلب على الظن أن التعليل المعقول لهذا الموقف وما يماثله هو ذلك الجبن المركوز فى طباعهم، وهذه الخسة والنذالة التى جبلوا عليها، فهؤلاء الناس لا يسعهم أبدًا أن يخوضوا غمار حرب وجهًا لوجه.. بل هم إما أن يأخذوا الآخرين على غِرَّة أو يختبئوا وراء الأسوار، ويتحصنوا بالحصون، إلى جانب ما برعوا فيه من أساليب المكر والدهاء والدس والوقيعة والمداهنة والمداراة.. وعلى كل فإن هذه الأحداث التى وقعت بين المسلمين واليهود وما تمخض عنها من طرد بنى قينقاع وإجلاء بنى

---

(١) أمين سعيد "نشأة الدولة الإسلامية"، ص ٩٢.

النضير وغيرها دلت بجلاء على ضعف الروابط بين اليهود وتفككهم، وعدم قيام وحدة تؤلف بينهم، ودلت من ناحية أخرى على خسة ونذالة، ولؤم ودناءة، وخصال سوء متأصلة فى نفوسهم لا منجاة لهم منها، وعلى هذا لأساس قامت فى نفس الرسول فكرة القضاء عليهم تدريجياً حسب ما يقع منهم من شر، مع مراعاة الاقتصار فى العقوبة على الفئة المعتدية التى تثبت إدانتها، وبهذا الأسلوب تمكن الرسول من القضاء عليهم تمامًا(١).

ومما لا شك فيه أن فى إجلاء بنى النضير والاستيلاء على ممتلكاتهم ما يقوى من روح المسلمين المعنوية، ويرهب منهم الأعداء، ويضعف صوت المنافقين، ويخرس ألسنة دعاة الهزيمة بالمدينة.

وإن كان لى ما أقوله بعد ذلك فى مسالة بنى النضير فهو يتمثل فى الرد على من يدعى أن محمدًا فعل يهم ما فعل لكونهم لم يشتركوا معه فى الدية .. بل أقول: لأنهم سلكوا معه سبيل الغدر والخيانة وحاولوا قتله والفتك به، بينما جماعة منهم يبتسمون له، ويرحبون أشد ترحيب بمقدمه إليهم، ومثل هؤلاء لا يأمن الرسول لمساكنتهم أو مجاورتهم لأنهم قوم لا عهد لهم ولا ذمة.

وفى جلاء بنى النضير نزلت سورة الحشر وجاء فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوَهُمْ

(١) لم يسلم منهم إلا يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جحاش وأبو سعيد بن وهب أسلما على أموالهما.

لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ. لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١١-١٣].

انظر إلى هذا التصوير الرائع لهذه الأنفس الوضيعة التى لا إيمان لها بربها فسلط الله عليها داء الخوف والرهبة فكان هذا الداء أكبر عامل فى القضاء عليهم ثم تأمل مظاهر هذا الخوف وآثار هذه الرهبة فى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

وفى هذه القلوب المشتتة والنفوس الممزقة يكمن سر الضعف، وتبدو سوءة اليهود، وينكشف أمرهم.

اليهود يحرضون قريشًا ضد المسلمين !!

على الرغم من إجلاء بنى النضير، وشيوع روح الطمأنينة بالمدينة؛ فإن رسول الله ﷺ كان حذرا غاية الحذر من غدر عدوه من المشركين عامة، ومن اليهود خاصة، هؤلاء الذين أججت هزائمهم المتوالية نيران الحقد فى صدورهم، فأخذوا يتربصون بمحمد الدوائر .. محمد الذى حطَّم آمالهم، وبدَّد أحلامهم، وزاحمهم فى سلطانهم، حتى كانت له الكلمة النافذة .. محمد الذى شرَّدهم ونفاهم وأخرجهم من ديارهم؛ فأجلى بنى قينقاع من المدينة، وساق بنى النضير إلى نفس المصير .. واختمرت فى نفوس الموتورين فكرة داعبت نتائجها آمالهم وأحلامهم .. لقد كانت هذه الفكرة تقضى بتأليب قبائل العرب ضد محمد وأتباعه من المسلمين .. وكان لزعماء بنى النضير الذين طردوا ولجأوا إلى خيبر أكبر الأثر فى

تنفيذ هذه الفكرة، والسعى لتكوين حلف عام يتمكنون بواسطته من القضاء على المسلمين، وكان من حديثهم فى ذلك كما ذكر ابن هشام(١).

أن نفرا من اليهود منهم "سلاَّم بن أبى الحُقيق" و "حُيى بن أخطب" و"كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق" وهم من بنى النضير و"هو ذة بن قيس الوائلى" و"أبو عمار الوائلى" فى نفر من بنى النضير، ونفر من بنى وائل خرجوا حتى قدموا على قريش فى موطنهم مكة ودعوهم إلى حرب محمد وأتباعه من المسلمين وقالوا: "إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله"، بيد أن قريشًا ألقت على اليهود سؤالاً دقيقًا لو أن اليهود أجابوا عليه بحق وصراحة لكان من الممكن للأحداث أن تتخذ وجهة أخرى غير التى سارت عليها؛ فقد قالت لهم قريش .. يا مشعر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

وتنصت قريش وتصغى إلى رد اليهود، ويصغى معها الزمان لكى يسجل للتاريخ أبشع جريمة يرتكبها أهل كتاب يزعمون أنهم "شعب الله المختار" ضد دين يدعو إلى التوحيد وفى مواجهة دعوة نبى جاء لمناهضة الشرك والوثنية فقد قالوا فى الرد على تساؤلهم: "بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه" وهكذا سجل اليهود على أنفسهم هذه الزلة الكبرى التى التصق بهم عارها أبد الدهر(٢). وتتنزل آيات القرآن الكريم

(١) السيرة النبوية، ج٣، ص ٢٢٩، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

(٢) أورد الدكتور هيكل فى كتابه "حياة محمد" قول الدكتور إسرائيل ولفنسون فى كتابه "تاريخ اليهود فى بلاد العرب" [كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم= =إجابة مطالبهم؛ لأن بنى إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخية كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخذلوا

لتسجل بدورها على اليهود هذه الزلة وتفضحهم فضيحة العمر الممتد إلى أن تقوم الساعة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً. فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾ [النساء: ٥١-٥٥].

واهتزت قريش طربا لمقالة اليهود، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب محمد، ولم يكتف اليهود بهذا، بل قصدوا أيضًا ديار غطفان خصوم المسلمين فدعوهم إلى حرب محمد وأتباعه، وأخبر وهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشا تابعوهم على ذلك، ولم يزالوا بهم حتى انضموا إليهم .. وهكذا جمع اليهود الجموع، وحشدوا الحشود، حتى كان لهم من ذلك كله جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، وفى شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة تحرك الجيش الضخم فى طريقه إلى المدينة..

ونحن فى بحثنا هذا لا نتعرض للخطوات التى تمت فى هذه المعركة، وما كان من حفر المسلمين للخندق؛ لأن ذلك خارج عن موضوع البحث، ولكن الذى يهمنا هو أن رسول الله ﷺ حشد كل إمكانياته لمواجهة العدو بجيوشه الجرارة وأظهر من التجلد والثبات وتمالك

المشركين، هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عبادة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم، ويناقضون تعاليم التوارة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام، والوقوف معهم موقف الخصومة]. وأقول: إن الدكتور إسرائيل يتحدث عن مبادئ وقيم، اليهود أبعد خلق الله على الإطلاق من فهمها والتعامل معها ...

الأعصاب العجب العجاب وخاصة بعد أن نقضت قريظة عهدها مع المسلمين على ذلك الوجه الذى يرويه ابن هشام حيث يقول[1]:

"وخرج عدو الله "حيى بن أخطبالنضرى" حتى أتى "كعب بن أسد القرظى" صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم مع الرسول والمسلمين، وأغلق كعب دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له فناداه حيى: ويحك يا كعب .. افتح لى. قال كعب: ويحك يا حيى إنك امرؤ مشئوم، وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه، ولم أرمنه إلا وفاء وصدقا .. ولكن حُييا لا يزال به حتى يفتح له فيقول له: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر، وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمَى إلى جانب أحد قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه. فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر وبجَهام قد هراق ماءه فهو يُرعِد ويُبرق ليس فيه شئ، ويحك يا يحيى .. فدعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء[2].

فلم يزل حُيى بكعب يمُنيِّه ويعده ويعطيه العهد والميثاق لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا ليدخلن معه فى حصنه حتى يصيبه ما أصابه .. فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين محمد من عهد وميثاق .. لكنها كانت كلمة غراء ناصعة نطق بها الرجل وكررها فى حواره مع حُيى بن أخطب "لم أر منه إلا وفاء وصدقا" فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء" فجاءت خير شاهد من هذا الزعيم اليهودى على نبل رسول الله وسمو خلقه ونظافة سلوكه وسلامة طويته.. لكن هذا

(١) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٣٥، وما بعدها. بتصريف يسير.

(٢) بحر طام: غزير فياض – الجّهام: السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه – هراق ماءه: أى صبَّه يريد أنه خال من المطر.

اليهودى لم يعمل بما يناسبها من حفاظ على العهد فكانت نقطة سوداء فى سجل تاريخهم القاتم زادته حلكة وظلاما ..

وانتهى إلى رسول الله الخبر فبعث جماعة منهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحه وغيرهم ليستطلعوا الأمر، ويتثبتوا الخبر .. فخرجوا حتى أتوا بنى قريظة فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، وقد نالوا من رسول الله، وقالوا: من رسول الله؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، حتى إن سعد بن معاذ – وكان رجلا فيه حدَّة – قد شاتمهم وشاتموه.

مع بنى قريظة:

هذه الخيانة العظمى فى هذا الظرف العصيب من جانب بنى قريظة، وما كان لذلك من أثر سيئ فى نفوس المسلمين جميعًا هى التى كيفت الأحداث المستقبلة ووجهتها وجهة خاصة تلقاء بنى قريظة .. فبعد أن نجى الله المسلمين من شر الأحزاب ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال أمر عليه السلام فأُذِّن فى الناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة، وقدَّم عليًّا برايته إليها .. وقد كانت هذه خطوة لابدَّ منها، خطاها رسول الله ﷺ استعمل فيها غاية الحزم بعد هذه الخيانة البشعة من جانب بنى قريظة فى أحرج الأوقات، وأعصب الظروف، إذ قطعوا المدد والميرة عن المسلمين، وأخذوا يعدون أنفسهم للقتال، بل لقد بدأ المتحمسون منهم ينزلون من حصونهم وآطامهم إلى منازل المدينة القريبة منهم لإشاعة الخوف والرعب والقلق فى نفوس سكانها وإرهاب أهلها.

ولم يعد المسلمون يأمنون مكر اليهود بعد ذلك أبدا .. ولئن كان الحق تبارك وتعالى يأمر بنبذ العهد عند الخوف من الخيانة حينما قال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

فلا شك أن نبذ العهد عند تحقق الخيانة ووقوعها فعلاً أولى وأجدر، وقد كان هذا النداء من جانب الرسول بالتجهز لغزو بنى قريظة يوم الثالث والعشرين من ذى القعدة بعد ظهر يوم الانسحاب فى الليلة السابقة له(١).

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وعلى الرغم مما كان فيه المسلمون من تعب ونصب ومشقة فإنهم خفوا سراعا لخوض معركة فاصلة ضد الخيانة والغدر واثقين من أن اليهود لن تغنى عنهم حصونهم من قبضة المسلمين شيئًا .. وسار على بن أبى طالب بجموع المسلمين، وحين دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة فى حق رسول الله وطعنا عليه ونيلا من عرض نسائه .. ولعل عليا قصد ألا يتأذى الرسول بأقوالهم فطلب إليه ألا يدنو من حصونهم، بيد أن الرسول ردَّ عليه قائلاً: ولم؟! أظنك سمعت منهم لى أذى؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: "لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا" فلما دنا الرسول من حصونهم قال: "يا إخوان القردة .. هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولا .. وقد نزل الرسول على بئر من آبار بنى قريظة يقال لها بئر "أنَّا" وتلاحق به الناس .. ولزم اليهود حصونهم، فحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين

(١) انظر حديث جبريل فى شأن بنى قريظة فى البداية والنهاية لابن كثير، ج٣، ص ١١٦، وابن هشام، ج٣، ص ٢٥٢.

ليلة، فلم يجرؤوا على الخروج من الآطام طوال مدة الحصار، حتى أدركهم الجهد، ولحقهم الضنك والأذى، وحين أيقنوا أن محمدا لا ينصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم(١): "يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم .. قالوا: وما هى؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه؛ فوالله لقد تبيَّن لكم أنه لنبى مرسل، وأنه للذى تجدونه فى كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم .. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا ابيتم علىَّ هذه .. فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمرى لنجدن (أولنتخذن) النساء والأبناء .. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟! فما خير العيش بعدهم؟! قال: فإن أبيتم علىَّ هذه فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب منهم غِرَّة .. قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يُحدث من كان قبلنا إلا من قد علمتَ فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ .. قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .. وبعد .. فلعل لنا فى هذا الحوار نوعا من التأمل نستشف من خلاله الشئ الكثير من خصائص اليهود، وعناصر تفكيرهم، ونزغات نفوسهم، وتقلبات أهوائهم، وتناقضات طباعهم .. وطلبوا إلى رسول الله أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس ليستشيروه فى أمرهم .. فلما وصل إليهم الرجل استقبلوه بعاصفة

(١) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٥٤، ت ح محمد محيى الدين عبد الحميد.

من العويل والبكاء والفزع من النساء والصبيان .. فرقَّ لهم الرجل، ورثى لحالهم .. وسألوه: يا أبا لبابة .. أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم [وأشار بيده إلى حلقة إنه الذبح] وقد كانت زلَّة من الرجل شعر بها لتوِّه؛ فربط نفسه إلى عمود من عمد المسجد إلى أن تاب الله عليه .. ولقد كان منتهى أمل يهود بنى قريظة أن يكون مصيرهم مصير إخوانهم بنى قينقاع وبنى النضير من إجلائهم ومصادرة أموالهم وجز شعر رءوسهم، فقد بعثوا إلى الرسول يعرضون عليه الخروج إلى أذرعات تاركين وراءهم ما يملكون .. بيد أن الرسول رفض ذلك، وأبى إلا نزولهم على الحكم .. ولكى يرضى رسول الله الأوس فى الحكم على مواليهم بنى قريظة، اختار حكمًا منهم وقال لهم: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال رسول الله ﷺ: "فذاك إلى سعد بن معاذ" وكان يعالج من جرحه يوم الخندق فى خيمة لا مرأة من "أسلم" يقال لها "رُفَيدة" كانت تداوى الجرحى، وأتاه قومه فحملوه وهم يقولون له: يا أبا عمرو .. أحسن فى مواليك فإن رسول الله إنما ولاَّك ذلك لتحسن فيهم. فلما أكثروا عليه قال: لقد أنى لسعد أن لا تأخذه فى الله لومةُ لائم.(١)

وأخذ المواثيق على الفريقين أن يرضى كلاهما بقضائه، فلما توثق منهم أمر ببنى قريظة أن ينزلوا، وأن يضعوا السلاح ففعلوا، فحكم سعد فيهم أن تقتل المقاتلة، وتقسم الأموال، وتسبى الذرية والنساء، وحينما نطق سعد بهذا الحكم بادره الرسول بقوله: "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة"(٢).

---

(١) مسيرة، ابن هشام، ج٣، ص ٢٥٨.

(٢) الأرقعة: السماوات واحدها رفيع.

ولتنفيذ هذا الحكم سيق الرجال مكتفين إلى المدينة حيث سجنوا فى دار امرأة من بنى النجار تدعى بنت الحارث، وعددهم بين ستمائة وسبعمائة، وقيل بين الثمانمائة والتسعمائة[1] وفيهم: "حيى بن أخطب" زعيم بنى النضير الذى لازمهم فى حصونهم برًّا بوعده الذى قطعه لهم، وفيهم أيضًا "كعب بن أسعد زعيمهم .. وخندقت الخنادق بسوق المدينة، وأتى بهم أرسالا فكانوا يقتلون، ويلقون فيها، وقد باشر هذه العملية "على ابن أبى طالب"، و"الزبير بن العوام" وقد أظهر اليهود وخاصة زعماؤهم وكبراؤهم شجاعة وجلدا وهم مقدمون على القتال وكأنهم مقدمون على نيل شهادة مثلى فى معركة مقدسة، فالرب يباركهم، وعينه ترعاهم؛ فهذا هو "حيى بن أخطب" يؤتى به وعليه حُلَّه، قد شقها من كل ناحية قدر أنملة – لئلا يُسْلَبَهَا – وقد جمعت يداه إلى عنقه بحبل. فلما نظر إلى رسول الله قال: "أما والله ما لمتُ نفسى فى عداوتك، ولكنه من يخذُل الله يُخْذَل" ثم أقبل على الناس فقال: "أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل" ثم جلس فضربت عنقه .. وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة .. والله إنها لعندى تحدَّث معى، وتضحك ظهرا وبطنا ورسول الله يقتل رجالها فى السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قلت لها: ويلك مالك؟! قالت: أقتل. قلت: ولم؟! قالت لحدث أحدثته .. قالت عائشة: فانطلق بها فضربت عنقها .. فوالله ما أنسى عجبا منها طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تُقْتَل هذه المرأة هى التى كانت قد ألقت الرحى على رجل من المسلمين فقتلته، وهذا الرجل وهو

(١) ابن هشام، ج٣، ص ٢٥٩، ونشأة الدولة الإسلامية، ص ١٠٧.

خلاَّد بن سُوَيد الذى كان يستظل بظل حصن من حصونهم. وقد أسلم من بنى قريظة ثلاثة رجال فأمنهم رسول الله على أنفسهم وأهليهم أموالهم، وكان عمرو بن سعد من رجالهم على غير رأى قومه فى نقض العهد مع المسلمين، فأطلقوه، فذهب إلى حيث لا يعلم بمكانه أحد، وقال عنه الرسول "ذاك رجل نجاه الله بوفائه" وكان رفاعة بن السموءل قد استجار بأم المنذر الأنصارية فاستوهبته رسول الله فوهبه لها فأسلم، وأراد ثابت بن قيس الأنصارى أن يجزى الزبير ابن باطا من رجال بنى قريظة على معروف كان له عنده فاستوهبه رسول الله فوهبه له، ووهب له معه أهله وماله، ولكن الزبير أبى إلا أن يلحق بأحبته الذين قتلوا من اليهود فضربت عنقه. وكان ﷺ يرفق بأسراهم ويوصى به خيرًا وقد عنف حارسًا لأسير جاء به وقد أرعف أنفه وقال له: لم صنعت بهم هذا؟أما كان السيف كفاية؟ ثم قال: أحسنوا إسارهم، وقيِّلوهم واسقوهم لا تجمعوا عليهم حرَّ الشمس وحرَّ السلاح ولا يُفرِّق بين الأم وولدها حتى يبلغوا" صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله يا من بعثت رحمة للعالمين ...

وكانت ريحانة بنت عمرو من نصيب رسول الله فعرض عليها الإسلام فأصرت على يهوديتها وعرض عليها أن يتزوجها فقالت: "بل تتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك" وكان لها ما أرادت .. وفى شأن بنى قريظة نزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً**.

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ .(١)

وبعد .. فإذا كان للخيال أن يجوب آفاق الماضى البعيد يستحضر هذه الصورة البشعة التى أسدل بها الستار مؤذنًا بنهاية بنى قريظة وتشريد نسائهم وأبنائهم، فليستحضر إلى جوارها أيضًا صورة للمسلمين وقد فتك برجالهم وقتلوا تقتيلا ومُثِّل بهم وشرِّدت نساؤهم، واستبيحت أعراضهم، وذبح أبناؤهم، وقُضى على دعوتهم قضاء مبرما من جراء هذه الخيانة العظمى من بنى قريظة تلك التى فتحت أبوابها على المسلمين، وقد أحاط بهم أعداؤهم من كل مكان، لو قدَّر لمؤامرتهم أن تنجح .. ولكن شاءت اليهود أمرا، وشاء الله غيره: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: من الآية ٢١]. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨، ٩]. ولم يحكم الرسول بهذا الحكم عليهم، ولكنه حكم حكم به أحد حلفائهم، وقد ارتضوه حَكَما، وكانوا يرجون منه الإحسان فيهم، ولكنها كانت الخيانة البشعة التى لا يرجى معها عفو أو إحسان .. الخيانة التى اشتركوا فيها جميعا، فتحملوا نتائجها جميعًا كذلك.

ولم يكن حب الانتقام والتشفى من خلق رسول الله فى يوم من الأيام، ولو كان سفك الدماء ديدنه وعادته لما سمح لبنى قينقاع وبنى النضير بالجلاء والخروج بأموالهم وأولادهم ونسائهم، بعد أن كانوا جميعًا فى قبضة يده .. والدكتور محمد حسين هيكل يعلق دم بنى قريظة فى

(١) سورة الأحزاب: ٢٦-٢٧، أهل الكتاب: بنو قريظة – صياصيهم: حصونهم وآطامهم – وأرضًا لم تطئوها: يعنى خيبر.

عنق حُيَى بن أخطب ويعلل ذلك بقوله[١]: "فهو قد حنث بالعهد الذى عاهد قومه من بنى النضير حين أجلاهم رسول الله عن المدينة، ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه أحد. وهو بتأليبه قريشا وغطفان وتحزيبه العرب كلها لقتال محمد وأتباعه قد جسَّم العداوة بين اليهود والمسلمين، وجعل هؤلاء يعتقدون أن بنى إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد وأصحابه .. وهو الذى حمل بنى قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها، والخروج من حيادها .. وهو الذى دخل حصن بنى قريظة بعد ارتحال الأحزاب، ودعاهم لمواجهة المسلمين، والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم" ا هـ كلامه.

ونحن لا ننكر الأثر السيئ الذى أحدثه: "حيى بن أخطب" ولكننا لا نحمله المسئولية كاملة وحده .. بل نشرك معه كعب بن أسد زعيم بنى قريظة فى هذه المسئولية، وندخل معهما كذلك بنى قريظة جميعهم؛ فكعب بن أسد يعترف فى حواره مع حيى بوفاء محمد وصدقه، ويكرر هذا الاعتراف، ويؤكد أنه لم يبد منه شئ نحوهم، ثم نراه يرمى حيى بن أخطب بالشؤم، ويعرض عنه ويغلق دونه حصنه، لكنه مع كل ذلك سرعان ما يتطامن ويستكين ويلين، وتتحرك فيه يهوديته فيرضى لنفسه أن يخون العهد، وينقض ما أبرم بينه وبين المسلمين، وتابعته بنو قريظة، ووقعوا فى حق محمد وأصحابه، ونالوا من عرض نسائه، بل وأنكروا العهد الذى كان بينهم وبينه .. بل إن كثيرًا من المتحمسين منهم نزلوا من حصونهم وآطامهم إلى منازل المدينة القريبة منهم يريدون إرهاب أهلها وترويعهم، وبعد أن حاصرهم المسلمون واشتد بهم الحصار طلب إليهم كعب بن أسد

(١) حياة محمد، ص ٣٠٩.

أن يسلموا فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم، ولكنهم رفضوا ذلك تمامًا مع أنهم يعلمون أنه الحق من ربهم .. فالمسألة عندى ليست مسألة حيى بن أخطب أو غيره ولكنها مسألة وباء يهودى يعتمل فى النفوس فيصدر عنها الغش والخداع، واللؤم والخسيسة "وإن كانوا فعلاً أصحاب عقيدة ومبادئ لصَحَّ واستقام أن نجد منهم دفاعًا مجيدًا عن أنفسهم وهم فى عدد وعدَّة وحصون، لكننا لم نجد منهم شيئًا من ذلك، فجمعوا إلى جوار صفات اللؤم السابقة سمات الذلة والمسكنة، وصدق الله العظيم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: من الآية ٦١]، وصدق الله العظيم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ. لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ. ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٠-١١٢].

مقتل سلام بن أبى الحُقيق(١):

وهو أحد زعماء اليهود الذين كانت لهم يد كبرى فى تحزيب الأحزاب وتأليب العرب ضد محمد والمسلمين، وليس لمثل هؤلاء الزعماء المتعصبين إلا علاج واحد حاسم هو الاستئصال.

(١) أبو رافع سلام بن أبى الحقيق من زعماء بنى النضير الذين ذهبوا إلى خيبر بعد جلائهم عن المدينة.

ومن قبل "أحد" كانت الأوس قد قتلت "كعب بن الأشرف" لمكان عداوته من رسول الله ﷺ .. ولما انقضى أمر بنى قريظة استأذنت الخزرج رسول الله فى قتل "سلام بن أبى الحقيق" وهو بخيبر حتى يكون لهم الشرف الذى حازته الأوس فى قتلها عدوا لدوداً من أعداء الإسلام.

ولقد أذن لهم الرسول فى الخروج إليه بخيبر، وأمَّر عليهم عبد الله بن عتيك ونهاهم عن أن يقتلوا وليدا أو امرأة أو شيخًا كبيرًا لا يشارك فى قتال .. وحين بلوغهم "خيبر" أتوا دار ابن أبى الحقيق ليلا، وهناك أحكموا خطتهم، وتوثقوا لإنجاز مهمتهم، فلم يدَعوا بيتا فى الدار إلا أغلقوه على أهله، ثم صعدوا إليه، فاستأذنوا عليه، فخرجت إليهم امرأته. فقالت: من أنتم؟ قالوا: ناس من العرب نلتمس الميرة. قالت: ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه. فلما دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها الحجرة تخوفًا أن تكون دونه مجاولة تحول بينهم وبينه، فصاحت امرأته ففوهَّت بهم، وابتدروه وهو على فراشه بأسيافهم ما يدلهم عليه فى سواد الليل إلا بياضه كأنه قُبْطية ملقاة(١) ولما صاحت بهم المرأة جعل الواحد منهم يرفع عليها سيفه ثم يذكر نهى رسول الله فيكف يده، ولولا ذلك لفرغوا منها بليل، وقد تحامل عليه عبد الله بن أُنَيْس بسيفه فى بطنه حتى أنفذه وهو يقول "قطنى قطنى أى حسبى حسبى".

ومما لا شك فيه أن فى استئصال زعماء يهود تحطيم لمعنوياتهم إن صح أن لهم معنويات، وتقليم لأظافر البغى والعدوان وما أشرسها من أظافر!! وقضاء مبرم على محاولاتهم إشاعة روح الفوضى والهزيمة فى الدولة الفتية الناشئة.

---

(١) ثوب أبيض ناصع يصنع بمصر.

وهذه أبيات قالها حسان بن ثابت فى مقتل "كعب بن الأشرف" و"سلام بن أبى الحقيق":

للَّـــــه درٌّ عصـــــابة لا قيـــــتَهم   يا ابن الحُقَيق وأنت يا ابن الأشرف
يســـرون بـــالبيض الخِفـــاف إلـــيكمُ   مرحـــا كأُســـدٍ فـــى عـــرين مُغْـــرِفَ
حتَّـــى أتـــوكم فـــى محَـــلِّ بلادكـــم   فسَـــقَوْكُمُ حَتفـــا ببـــيض ذُفَّـــفِ
مستنصـــرين لنصـــر ديـــن نبـــيهم   مستصـــغرين لكـــل أمـــرٍ مُجْحـــفِ

تأهب اليهود لغزو المدينة وفتح المسلمين خيبر:

تقلص النفوذ اليهودى من منطقة المدينة وما حولها عقب الأحداث التى نزلت ببنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة .. وأهم منطقة تركز فيها النفوذ اليهودى عقب تقلصه كانت منطقة خيبر التى لجأ إليها كثير من يهود بنى قيقناع وبنى النضير وكثير من زعمائهم وأشرافهم فكان العدد وافراً، كما كانت العُدَّة كاملة، والحصون كثيرة ومنيعة بذلوا فى سبيل إعدادها وتنظيمها جهودًا ضخمة خشية النوائب والملمات، وخوف الطوارئ والمفاجآت، وكان عدتها سبعة حصون كبيرة يعتصمون بها، ويدافعون من ورائها عند الهجوم(١). ولقد نشط اليهود ولا سيما فى خيبر الواقعة على طريق الشام على مسيرة خمسة أيام من المدينة(٢) إلى مقاومة المسلمين والكيد لهم، والعمل الدءوب للقضاء على دعوتهم بتأليب الجموع، وحشد القوى لمجابهتهم والترصد لهم؛ فأخذوا يعقدون المحالفات، ويفاوضون يهود "فَدَك" على نصرتهم على أن يكون لهم تمر خيبر(٣). ولقد مكث المسلمون

---

(١) نشأة الدولة الإسلامية، ص ١٣١، هى: ناعم، القَمُوص، أبى الحقيق، الشِّق، النطاة، السُّلالم، الوطيح، الكتيبة.

(٢) معجم البلدان لياقوت مادة (خيبر).

(٣) الطبرى، ج٣، ص ٨٣.

فى حرب مع يهود "وادى القُرى" و"فَدَك" لفترة كبيرة من السنة السادسة للهجرة عقب غزو بنى قريظة .. وفى المحرم من السنة السابعة وعقب رجوعهم من مكة وبعد أن عقدوا صلح الحديبية مع قريش تجهزوا لفتح خيبر.

وتقع خيبر من المدينة على نحو مائة ميل إلى الشمال بينها وبين الشام، وهى مسافة تقطع بالإبل فى خمسة أيام، وكانت خيبر واحة كبيرة خصبة ذات حصون ومزارع ونخل كثير، ولم يكن سكانها مجتمعين فى صعيد واحد بل كانوا متفرقين فى الوديان المتجاورة، يقطنون بيوتًا حصينة وسط النخيل والحصون، وكانت خيبر مقسمة إلى ثلاث مناطق حربية: الأولى منطقة النَّطاة، والثانية منطقة الشِّق، والثالثة منطقة الكتيبة، وكان فى كل منطقة عدة حصون منيعة، ضمن حصون منطقة النطاة حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن الزبير وهو حصن قُلَّة، ومن حصون منطقة الشِّق حصن أبى وحصن البرئ، ومن حصون منطقة الكتيبة حصن الوطيح، وحصن السُّلالم، وحصن القَمُوص وهو حصن نزار.. وكانت تلك الحصون منيعة على رءوس الجبال، وكان حماتها مدربين على القتال والدفاع، وكان يهود خيبر من أقوى الطوائف بأسا، وأوفرها مالاً، وأكثرها سلاحًا، وأجودها تنظيما، لكنهم لا يحاربون إلا أمام الحصون حتى إذا انهزموا عادوا إليها وأغلقوها دونهم. ﴿**لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ**﴾ [الحشر: ١٤]. وقد عرف الرسول فيهم هذه الطبيعة فوضع خطته على أساسها حين سار إليهم ليغزوهم فى عقر دارهم فى المحرم من السنة

السابعة للهجرة (أغسطس ٦٢٨م)، واستخلف على المدينة "سِبَاع بن عَرْفَطَة" ودفع الراية إلى على بن أبى طالب وكانت راية بيضاء وكان دليله ابن نوير الأشجعى(١). فوصل إلى وادى "الرجيع" فى الليل(٢) فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يهموا بنصرة خيبر وحمايتها، وكانوا من المظاهرين لهم على الرسول والمسلمين، ولما أصبح ركب إلى خيبر دون أن يشعر اليهود، ولما وصلها المسلمون استقبلهم عمال خيبر من الفلاحين وقد خرجوا مبكرين بمساحيهم ومكاتلهم إلى مزارعهم وغيطانهم فصاحوا: محمد والخميس معه(٣) وولو هاربين إلى حصونهم، وقال الرسول صلوات الله عليه "الله أكبر، خربت خيبر .. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين"(٤) .. مستشهداً بالآية الكريمة: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧].

وكانت غطفان قد خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، بيد أن الرسول كان قد عبَّأ قواته تعبئة منظمة وكان تعدادها ألفًا وستمائة مقاتل من بينهم مائة فارس وقسم هذه القوات إلى قسمين القسم الأكبر أعد لمهاجمة اليهود فى حصونهم، أما القسم الثانى فقد كان بين خيبر وغطفان فى وادى "الرجيع" ليقاوم غطفان ويصدها إن حاولت القيام بعمل لنصرة يهود، وحين خرجت جموع غطفان وساروا مرحلة سمعوا خلفهم جلبة وصياحًا فى

(١) انظر: ابن هشام، ج٣، ص ٣٧٨، الطبرى، ج٣، ص ٩٣.

(٢) وهو غير وادى الرجيع القريب من الطائف الذى يسكنه بنو الرجيع، ورجيع خيبر من ناحية الشام على خمسة أيام من المدينة فيكون بين الرجيعين أكثر من خمسة عشر يومًا.

(٣) الخميس الجيش لكونه خمسة أقسام: مقدمة، ساقة، قلب، ميمنة، ميسرة وفى القلب يكون قائد الجيش.

(٤) برواية أنس بن مالك.

أموالهم وأهليهم فظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين محمد وخيبر[(١)].

ولقد كانت سياسة الرسول فى هذه الغزوة ترتكز على السرعة والمفاجأة وتقسيم المعركة إلى جبهات متعددة .. وهذه خير طريقة لإدارة معركة يعتمد العدو فيها على حصونه وآطامه وذخائره ومدخراته من المؤن والسلاح. يقول ابن هشام[(٢)]: "وتدنَّى رسول الله الأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتتحها حصنًا حصنًا، وكان اليهود قد أدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصن "الوطيح" و"السُّلالم" عملا بإشارة زعيمهم "سلاَّم بن مِشْكَم" وأدخلوا ذخائرهم فى حصن "ناعم" ودخلت المقاتلة وأهل الحرب فى حصن "نطاة" والتقى الجمعان حول حصن نطاة واقتتلوا قتالاً شديدًا، وقد اقترح "الحُبَاب بن المنذر "[(٣)] على رسول الله أن يتحول عن النطاة إلى حصن آخر قائلاً: "إن لى بأهل النطاة معرفة، وليس قوم أبعد مدى منهم – فى الرماية – ولا أعدل رمية، وهم مرتفعون علينا، ولا نأمن مفاجأة يفاجئوننا بها يأتوننا من بين النخل" وقد أخذ الرسول برأيه، وتحول الناس إلى مكان أصلح، وتولى الحارث بن أبى زينب قيادة اليهود عقب وفاة "سلام بن مشكم" وخرج من حصن ناعم يريد منازلة المسلمين فتصدى له بنو الخزرج حتى اضطروه إلى التقهقر ناحية الحصن، وشدَّد المسلمون الحصار فما لوقت الذى استماتت فيه يهود فى الدفاع عن حصونهم، لأنهم وثقوا أنَّ فى هزيمتهم أمام محمد القضاء المبرم على اليهود فى جزيرة العرب، بيد أنهم لم يغن عنهم دفاعهم شيئًا، وافتتح حصن ناعم بعد أن أظهر على بن أبى طالب

(١) ابن هشام، ج٣، ص ٣٨٠.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٣٨١، ت محيى الدين عبد الحميد.

(٣) وهو صاحب المشورة يوم بدر حيث أشار على الرسول بالعدول عن المنزل الأول.

شجاعة فائقة، وبطولة نادرة، واقتداراً عجيباً فى قتاله وكرِّه على العدو، ويقظته وسرعته .. ثم فتح المسلمون من بعد "ناعم" حصن "القموص" وهو حصن بنى أبى الحُقيق حيث أصاب الرسول منهم سبايا منهن "صفية بنت حيى بن أخطب" وقد اصطفاها الرسول لنفسه وبنى بنها إذ كانت سيدة بنى قريظة والنضير وهى لا تصلح إلا له فأعتقها وتزوجها، وتتابع الفتح بعد ذلك فسقطت حصونهم الواحد بعد الآخر، ولم يبق سوى "الوطيح" والسُّلالم" ولقد كان لسقوط هذه الحصون آثار بعيدة المدى فى نفوس المسلمين الذين أجهدتهم الحرب وقلة المئونة، وعظم المشقة فحين فتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ وجدوا فيه طعامًا كثيرًا مكَّنهم من متابعة القتال، والاستمرار فى تضييق الخناق وشد الحصار، وقد مكث الرسول فى حصار "الوطيح" و"السُّلالم" أربعة عشر يومًا حتى إذا أيقنوا بالهلاك سألوا الرسول الصلح وطلبوا منه أن يسيرهم، ويحقن دماءهم، فقبل الرسول ذلك، ثم سألوه أن يبقيهم على الأرض يعملون بها لقاء نصف ثمرها لأنهم أعلم بالأرض من المسلمين وأعمر لها، فصالحهم الرسول على النصف واشترط عليهم أنه إذا شاء إخراجهم أخرجهم .. وهكذا كانت خيبر فيئًا للمسلمين وقد غنموا: ألف رمح، مائة درع، أربعمائة سيف، خمسمائة قوس، وغنموا كميات كبيرة من الشعير والتمر والودك والمتاع والماشية وغيرها، واستولوا كذلك على كنز آل أبى الحقيق الذى حاول كنانة بن الربيع إخفاءه عن المسلمين.(١)

---

(١) نشأة الدولة الإسلامية، ص ١٣٢، والودك: السمن والزيت ونحوهما. وكنانة بن الربيع كان زوج صفية وقد قتل بعد إنكاره معرفة الكنز ...

وهكذا عامل الرسول ﷺ أهل خيبر هذه المعاملة الكريمة بعد أن أيقن أنه لن تقوم لليهود فى الحجاز قائمة بعد ذلك أبدًا. فليس إذن فى معاملتهم المعاملة الكريمة وإبقائهم على أرضهم بالنصف ما يمكن أن يخشى منه على المسلمين؛ لأن شوكتهم كسرت، ولأن خطرهم قد زال، وهذه مثل عليا، وضرب من ضروب السلوك الرفيع يقدمه نبى الرحمة، ورسول الهداية برهانًا لعفوه وبرِّه وإحسانه وتسامحه لكى يبطل دعاوى المبطلين، ويفند مزاعم المغرضين .. وأود فى هذا المقام أن أشير إلى إحسان النبى فى معاملة يهود خيبر فى أمر خاص يمس المقدسات، فقد كان من بين ما غنم المسلمون عدة صحائف من التوراة، فطلب اليهود ردَّها، فأمر النبى بتسليمها لهم، ولم يصنع صنيع الرومان حين فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بالأقدام، ولا هو صنع صنيع النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حين أحرقوا صحف التوراة(١).

وأشير كذلك إلى أن يهود خيبر ما كانوا يسلمون فى شبر أرض ولا يسلمون حصنًا إلا بعد أن يدافعوا عنه دفاعًا مستميتًا، وبعد ألا تبقى لديهم قدرة على صد هجوم المسلمين وهذا فتى منهم يدعى مَرْ حب اليهودى يخرج من أحد الحصون وقد جمع للحرب سلاحه وأكمل عدَّته وهو يرتجز شعرًا بالعربية:

**قد علمتْ خيبرُ أنى مَرْ حَبُ		شاكى السلاح بطل مُجَرَّب**
**أطعَنُ أحيانا وحينا أضرب		إذا الليوث أقبلت نُحرَّب**

---

(١) حياة محمد لهيكل، ص ٣١٣، وما بعدها.

**إن حِمَـــاىَ للحمـــى لا يُقْــربَ		يُحجِـم عـن صـولتى المجـرب**[1]

فصاح محمد بأصحابه "من لهذا؟" فنهض محمد بن مَسْلَمة قائلا "أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر، قتل أخى بالأمس (محمود ابن مسلمة الذى قتلته المرأة اليهودية بالرحى) وتصاولا حتى حانت فرصة تمكن منه محمد بن مسلمة فقتله ..

وإشارة ثالثة لها مغزاها فقد كان الرسول يعمل من طبائع اليهود وشدة الحرص على المال، فرأى أن يرهبهم بإتلاف بعض ما يمتلكون فأمر بقطع نخيلهم حتى قطعوا نحو أربعمائة نخلة، لكن اليهود صمموا على المقاومة والمضى فى الحرب؛ فنهى النبى عن قطع النخيل ..

وإشارة رابعة فقد خشى أبو أيوب الأنصارى على الرسول من صفية بنت حيى بن أخطب فبات متقلدًا سيفه حول الخيمة التى أعرس فيها محمد بصفية فى طريق عودته من خيبر، وقال للرسول حين سأله "خفت عليك من هذه المرأة وقد قتلت أباها (حيى بن أخطب) وزوجها (كنانة بن الربيع) خشية أن تتحرك فى نفسها الضغينة. وكان الرسول قد خيَّر صفية بين أن يُعتقها ويتزوجها وبين أن يلحقها بأهلها فاختارت أن تكون له زوجة وقد روى عنها أنها قالت: "كان رسول الله أبغض الناس إلى، قتل زوجى وأبى، فما زال يعتذر إلى ويقول "إن أباك ألَّب علىَّ العرب وفعل وفعل .. وزوجك أقسم أنه لا يعرف كنزًا وهددته بالقتل إن استبان الكنز فأنكر وقد ظهر كذبه فقتل. وهكذا .. حتى ذهب ذلك من نفسى .. على أن صفية أقامت على الوفاء لمحمد حتى قبضه الله إليه، وقد اجتمع نساؤه حوله فى مرضه الأخير فقالت صفية .. أما والله يا نبى

---

(١) نفسه، وتحرَّب: تغضب.

الله لوددت أن الذى بك بى .. فتغامز بها أزواج النبى، فقال لهن: مضمضن. قلن: من أى شئ يا نبى الله؟ قال: من تغامزكن بصاحبتكن، والله إنها لصادقة، وبقيت صفية بعد النبى حتى خلافة معاوية حيث توفيت ودفنت بالبقيع ..

يهود فَدَك وتيماء ووادى القُرى:

بقى بعد خيبر أن يحدد الرسول موقفه من يهود فدك وتيماء ووادى القُرى، فبعث النبى إلى أهل فدك أن يُسلموا ويؤمنوا برسالته أو يسلموا أموالهم، فبعثوا إلى رسول الله يسألونه أن يسيِّرهم وأن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال، إلا أنهم بعد ما علموا أن أهل خيبر قبل الرسول أن يعاملهم فى الأموال على النصف، طلبوا هم أيضًا مثل ذلك، فكانت فدك بذلك خالصة لرسول الله لأن المسلمين لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

ولقد تجهز الرسول بعد ذلك للعودة إلى المدينة، وقد عرَّج فى طريقه على وادى القُرى وهو آخر حصن لليهود فى الشمال قبل تيماء، فحاصره، واشتبك اليهود مع المسلمين، وتقاتلوا .. ولكنهم أخيرًا اضطروا إلى التسليم والإذعان لحكم الرسول الذى أقام عليهم عمرو بن سعيد بن العاص عاملاً .. ولقد جاءه وهو فى وادى القرى ممثلون لسكان تيماء يعرضون على الرسول الصلح وقبول الجزية من غير حرب أو قتال ..

وهكذا أخضع الرسول صلوات الله عليه شمالى لحجاز كله وأدخله فى حدود الدولة الفتية الناشئة، وقضى على النفوذ اليهودى، وعلى كل ما كان لهم من سلطان فى شبه الجزيرة، وبذلك وطَّد للدولة دعائم الأمن والسلام من ناحية الشمال إلى الشام، كما تحقق ذلك أيضًا من ناحية الجنوب بعد صلح الحديبية.

ولـئن قضـى الرسـول علـى اليهـود كجماعـة لهـا آمالهـا وأحلامهـا وبأسـها وسلطانها، وأصبح بمأمن منهم، إلا أننا نجد كثيرًا من الأفراد قد انطـوت قلـوبهم علـى حقـد دفـين لمحمـد والمسـلمين فـى أعقـاب الهـزائم المتواليـة، والنكبات المتتابعة، والمصـائب المدلهمـة، ولم يعد فـى مقدورهم أن يستكينوا ويتواروا ويلجئوا إلى المداراة، ولا أدل على ذلك من أن زينـب بـن الحـارث امـرأة "سـلاَّم بـن مِشْكم" أهـدت إلـى رسـول الله شـاة مصـلية مسمومة بعد أن اطمـأن ووقـع الصـلح بينـه وبـين أهـل خيبـر .. ولكن الله سلَّم، وحفظ رسوله الذى تنـاول ذراع الشـاة، فـلاك منهـا مضـغة، ولكنـه لم يسـغها فلفظهـا، بينمـا طعـم منهـا بشـربن البـراء فقتلـه السـم، ولقد اعتـذرت المرأة عن فعلتها الشنيعة بقولها للرسول: لقد بلغتَ من قومى ما لم يخف عليك، فقلت: إن كـان ملكـا استرحتُ منـه، وإن كـان نبيًا فسيُخبَر .. وقد اختلـف الـرواة فـذكر أكثرهم أن النبـى عفـا عـن زينـب، وقدّر لهـا عـذرها، وذكر بعضهم أنها قتلت قصاصًا فى بشربن البراء الذى مات مسمومًا.

هذه الحـادثة تركت أثرًا عميقًا فى نفوس المسلمين الذين كـانوا علـى عهد قريـب بغدر اليهـود وخيـانتهم؛ فكـانوا دائمًـا فـى احتـراس مـن أفرادهـا وخشـية مـن غـدرهم ومـا موقـف أبـى أيـوب الأنصـارى خـالـد بـن زيـد مـن حراسته للنبى ليلة أن أعرس فيها بصفية بنت حيى بن أخطب عنا ببعيد ..

ولـو أن المسلمين كـانوا أهـل بغـى وجـور وسفك للـدماء لمـا تركـوا علـى ظهرهـا يهوديًـا، بعد أن أخزاهم الله وجعلهـم فـى قبضـة المسـلمين .. بين أن هذه الحقيقة لا يعترف بها كثير من المستشرقين فنراهم يتخبطون

فى اتهاماتهم الباطلة التى لا تستند إلى أى أساس .. وهذا هو مرجليوث يقول(١):

"وقد عاش محمد هذه السنين الست بعد هجرته إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب .. ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده، ومسقط رأسه، وضياع أملاكه، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية فى المدينة، فقد كان هناك على أى حال سبب ما – حقيقيًا كان أو مصطنعًا – يدعو إلى انتقامه منهم، إلا أن "خيبر" التى تبعد عن المدينة كل هذا البعد، لم يرتكب أهلها فى حقه، ولا فى حق أتباعه خطأ يعتبر تعديًا منهم جميعًا".

ويستنتج "مرجُلْيوث" من ذلك كله أن المسلمين حينما غزوا خيبر كان هدفهم ومقصدهم الحصول على المغانم، والاستيلاء على الأموال، وهم من أجل ذلك فى نظره قد أصبحوا يمثلون أعظم خطر يهدد العالم.

وبد هى أن الرجل مبطل فى دعواه، ضال فى استنتاجه، وهو إذ يوغل فى باطله وضلاله، يثبت بشكل واضح عدم إخلاصه فيما يقوله ويدعيه، فإن الرسول صلوات الله عليه هو الذى مدَّ يد السلام والأمان إلى اليهود بادئ ذى بدء، وهو الذى أراد للعلاقات القائمة بين المسلمين وبينهم أن تكون على أساس وطيد من المحبة والتسامح والحرية والإخلاص والوفاء حينما عقد معهم هذه المعاهدة التاريخية فى الأيام الأولى من قدومه المدينة .. وهو الذى أثبت فى كل الظروف والأحوال إخلاصه ووفاءه وتسامحه إزاء اليهود، حتى إنهم ليلهجون فى أحاديثهم بمدح إخلاصه، والإشادة بصدقه ووفائه، وذلك كما حدث من كعب بن أسد

---

(١) نقلاً عن تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم حسن.

القرظى فى خطابه لحيى بن أخطب حين قدم عليه الأخير طالبًا من بنى قريظة تحيزهم ضد محمد والمسلمين ونبذهم للعهد والميثاق .. والتاريخ ينطق بأنه ما من معركة حدثت مع اليهود إلا وكان لها من الأسباب ما يبرر قتالهم .. بل والقضاء عليهم .. ومع ذلك فقد كان جانب العفو والصفح يغلب على رسول الله فى كثير من المواقف ثم إنه كان قبل الشروع فى القتال يعرض على القوم الإسلام ليحفظوا بذلك دماءهم وأموالهم وأعراضهم ويصير لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم..

ولكن .. يبدو أن "مرجليوث" يغمض عينيه عن هذه الحقائق لا لشئ إلا لأنه ينفث بأباطيله عن صدر أفعم بالحقد وقلب غشيته الظلمات، ونفس غلفتها الضلالات فحجبت عنه أنوار الحقائق، وأغرقته فى متاهات الزور والبهتان.

ويهود خيبر بالذات كانوا من أشد الناس إيذاء لرسول الله فكان سيدهم أبو رافع بن أبى الحُقيق من ألدِّ أعدائه ﷺ وكان هووكعب بن الأشرف فى إيذاء الرسول كفرسى رهان، ويغريهم بذلك، ويحضهم عليه أنهم كانوا من أشجع اليهود، وأقواهم شوكة، وأشدهم شكيمة.

ولقد رأينا كيف أن معاملة الرسول لليهود كانت أقرب إلى البر والرحمة والتسامح من معاملة الآخرين لهم فى سائر العصور، فلطالما عفا عنهم بعد أن غدروا به، ووقعوا فى قبضته، وهو الذى أقر يهود خيبر على أراضيهم معاملة بالنصف، ولو شاء لفتك بهم على أبشع صورة،كما فعل غيره فى الحقب المتوالية من أحقاب التاريخ، وذلك لما ركّب فيهم من

خصال الغدر والخيانة والخسة واللؤم والنذالة .. يصور ذلك أتم تصوير ما جاء فى كتاب "دولة إسرائيل" لوديع تلحون حيث يقول(١):

"وكان اليهود حيثما حلوا كجماعة أو كأفراد يرسمون حول أنفسهم علامات الاستفهام الكثيرة، ويخلقون فى المحيط الذى يعيشون فيه جوًا مفعمًا بالقلق والبلبلة والاضطراب" ويستطرد: "فاليهود – دومًا وعامة – يمثلون عنصرًا طفيليًا بين الجماعات البشرية الأخرى، يعيش على حساب تلك الجماعات عن طريق الامتصاص والاكتساب لا عن طريق التعاون والانسجام وهم معروفون أيضًا بالنزعة المادية الصرفة التى تحمل طابع الشره والجشع .. ونتيجة اجتماع هذه الصفات مع بعضها تولد لدى اليهود طبيعة أخرى هى الأنانية وليست أنانية الفرد بذاته فحسب، بل أنانية الجماعة اليهودية برمتها إزاء ما عداها من الجماعات والشعوب .. ومن هنا كان طبيعيًا أن تقوم هذه المشاكل بين اليهود وغيرهم من الجماعات البشرية ..".

وبعد .. فلقد كانت هذه هى سياسة الرسول مع يهود الحجاز: سياسة رشيدة حازمة .. سياسة مستقيمة عادلة .. سياسة لها قلب ولها ضمير .. قلب كبير، وضمير حى .. سياسة تأبى الجور، وتتحاشى الظلم، ولا تستسيغ العدوان .. وبهذه السياسة عرف الرسول كيف يحمى دولته الفتية الناشئة من عبث العابثين، وفوضى المفسدين، وغطرسة المستبدين .. ولولا ذلك لما قامت لهذه الدولة قائمة ولتقوضت دعائمها، وزلزلت أركانها، وهى لما تزل فى مطلع حياتها وطور نشوئها وارتقائها..

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: من الآية ٢١]. لقد أثبت الرسول صلوات الله عليه بهذه السياسة أن محمدا السياسى لا يقل منزلة عن محمد الرسول المبعوث رحمة للعالمين بشيرًا

(١) ص ٨، وما بعدها.

ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسرجًا منيرا .. كما أنه بسياسته هذه ضرب أروع الأمثلة للأجيال القادمة من بعده وكشف النِّقاب عن أحكم خطة يتحتم عليهم اتباعها إزاء الأطماع اليهودية الممتدة عبر الأجيال والعصور .. لقد كانت هذه السياسة رسالة إصلاح وتهذيب لهذه النفوس التى أفسدتها الأطماع، وحطمتها الشهوات، واستبدت بها الآمال الكاذبة، والأوهام الشاردة، فتركتها تسبح فى ظلمات الضلالات والخطايا ومتاهات الضياع.. وما كانت هذه السياسة إلا سياجًا يحمى هذا النور الذى أراد اليهود وأراد المشركون أن يطفئوه .. ولكن الله أتم نوره وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ..